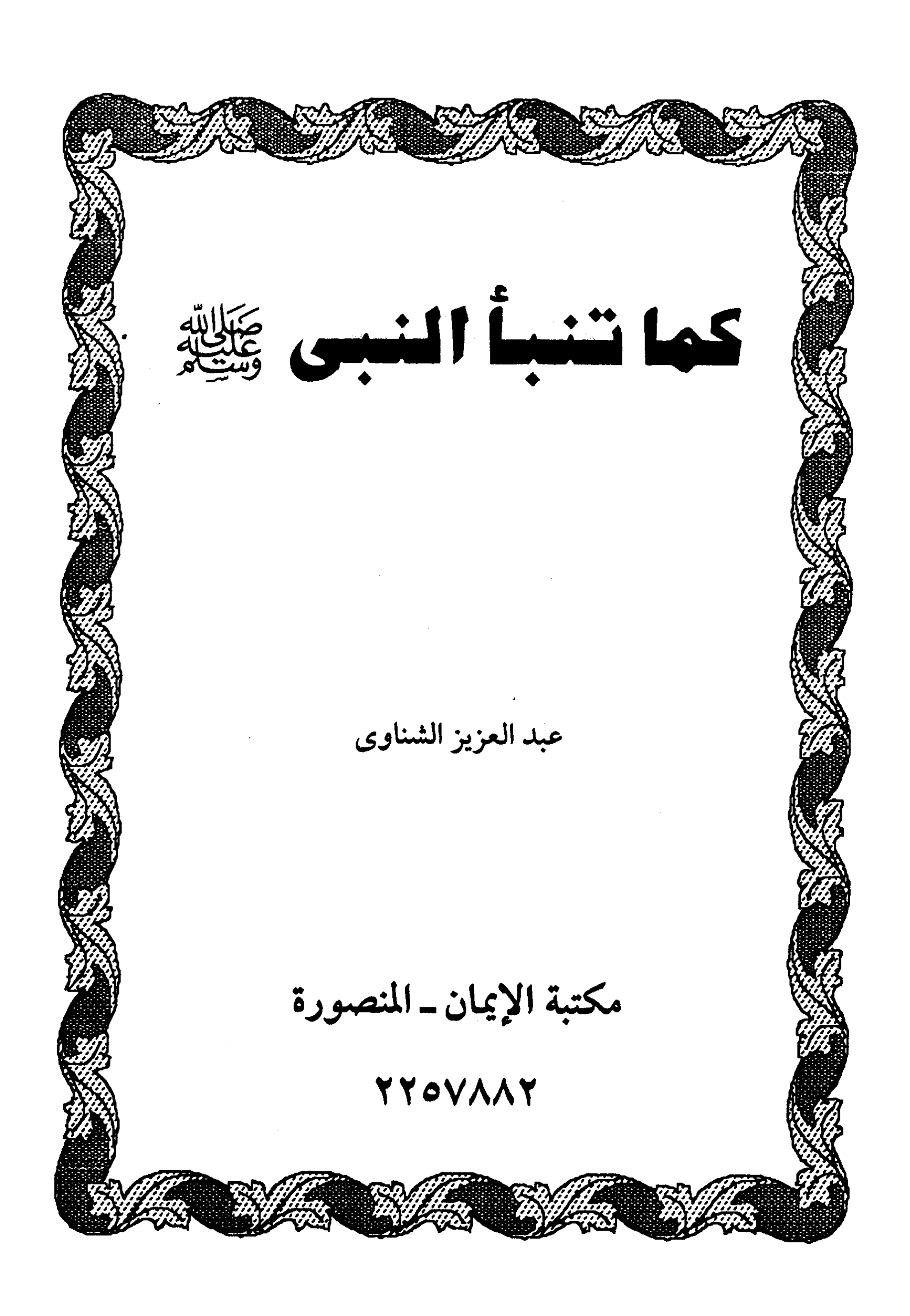


كما تنبأ النبى ﷺ

عبد العزيز الشناوى

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

٢٢٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

قالت أسماء بنت أبى بكر :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يخرج من ثقيف كذابان : الآخر منهما شر من الأول وهذا المبير » .

[رواه الحاكم في المستدرك عن أسماء بنت أبى بكر]

ثم مدت أسماء يدها حتي كادت سبابتها أن تفقأ عين الحجاج بن يوسف وقالت:

أما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت هو يا حجاج .

الحجاج بن يوسف

*** ميلاد فى ليلة عاصفة :**

أطبقت الظلمة على ديار الطائف وثقيف ، هل أقبل الليل فجأة ؟ لقد فرغ الناس من صلاة العصر منذ قليل ؟

فتح يوسف بن أبى عقيل باب داره وتطلع إلى السماء فرأى جبال السحب السود تزحف على صدر السماء ، وهبت الريح فاقتحمت الدور ، فصرخت الفارعة بنت همام:

ـ أغلق الباب يرحمك الله .

فرد يوسف بن أبى عقيل الباب .

ابتلع أنين الفارعة بنت همام عواء الريح التى انطلقت كوحوش ضارية تريد أن تقتلع الدور .

امتدت يد يوسف بن أبى عقيل نحو المصحف ، تذكر يوسف بن أبى عقيل قول خاتم النبيين ﷺ :

« **اللهم إنى أعوذ بك من شر الريح ومن شر ما تجىء به الريح ، ومن شر ريح الشمال فإنها الريح العقيم** » [رواه الحاكم فى المستدرك عن جابر] .

ووجد يوسف بن أبى عقيل نفسه يكبر بصوت مسموع :

ـ الله أكبر ، الله أكبر .

ألم يرشد السراج المنير ﷺ أصحابه إذا هبت الريح فقال عليه الصلاة والسلام :

« **إذا وقعت كبيرة أو هبت ريح مظلمة فعليكم بالتكبير ، فإنه يجلى العجاج الأسود** » [رواه ابن السنى عن جابر] .

لكن أية كبيرة ؟ هل المخاض الذى دهم امرأته . . كبيرة ؟

أشعل يوسف بن أبى عقيل السراج فراح يصارع الظلمة التى أنشبت مخالبها فى كل شىء .

أضاء الحجرة سيف البرق الذى شق السماء وأضاء الديار وزلزلتها زمجرة الرعد.. وهطل المطر ، هل صارت السماء أبوابا ؟

رفع يوسف بن أبى عقيل يديه اللتين تطبقان على المصحف وردد قول أبى القاسم ﷺ:

« **اللهم صيبا نافعا** » [أخرجه البخارى كتاب الصلاة باب ما يقال إذا أمطرت السماء عن عائشة] .

نظرت الفارعة بنت همام نحو زوجها بعينين كليلتين وقالت وهى تعض شفتيها لتخنق آلام المخاض :

ـ لماذا لم تأت قابلة ثقيف ؟

قال يوسف بن أبى عقيل :

ـ لا أدرى ، ربما منعها الريح والبرق والرعد والمطر الذى صار كالسيل فجأة .

وأمسك يوسف بن أبى عقيل عن الكلام عندما سمع طرقات متعجلة على باب داره .

اندفعت قابلة ثقيف من الباب كالسهم المارق ، ثم جلست وهى ترتجف وتنفض عن درعها ـ ثوبها ـ الماء وقالت وهى تنفخ فى قبضتيها :

ـ لم أر يوما كهذا اليوم منذ ولدتنى أمى ، لقد اكفهرت السماء فجأة و . . . .

وحطت عينا قابلة ثقيف على بطن الفارعة بنت همام ، وقالت فى نفسها :

ـ هل هذا بشير أم نذير لمقدم المولود القادم ؟

وتقابلت عينا قابلة ثقيف بالعينين الكليلتين فقالت الفارعة بنت همام:

ـ لا أدرى لماذا أشعر . . .؟

وسكتت امرأة يوسف بن أبى عقيل ، كانت تريد أن تخبر زوجها أن قلبها يساوره القلق منذ أن رأت رؤياها التى أفزعتها ؟ لقد رأت أنها وضعت كلبًا عقورا يلغ فى الدماء.

طلبت قابلة ثقيف من يوسف بن أبى عقيل أن يشعل النار فى بعض الحطب ليدفئ

امرأته .

انطلقت صرخة المولود الجديد ، لماذا دوت صرخته هكذا ؟ هل نخسه الشيطان نخسة موجعة ؟

هتفت قابلة ثقيف :

ـ إنه ذكرٌ يا أبا محمد .

التقط يوسف بن أبى عقيل المولود من بين يدى قابلة ثقيف وراح يحتضنه ويقبله.

*** مولود مشوه :**

جرت يد يوسف بن أبى عقيل الحانية على رأس ابنه ثم زحفت إلى ظهره وسكنت على دبره ، ما هذا؟ لا دبر له ؟ كيف يقضى حاجته ؟

ارتجف قلب الفارعة بنت همام لما سمعت قول زوجها :

ـ المولود لا دبر له .

هل قدم هذا الوافد الجديد بالشر ؟ إن الحلم من الشيطان والرؤيا من الله عز وجل هل ما رآته حلما . . ؟ ولم لا تعتبره . .؟ ولكن العواصف والصواعق وهطول الأمطار وصرخة المولود المدوية ، وولادته بلا دبر . . .؟ . . بم تفسر كل ذلك ؟

*** الحجاج .. سميته الحجاج :**

مزق خيوط الصمت صوت قابلة ثقيف :

ـ يا أبا محمد ما سميته ؟

قال يوسف بن أبى عقيل :

ـ الحجاج ، سميته الحجاج .

نشر يوسف بن عقيل المصحف فوقع بصره على سورة التغابن ـ يوم التغابن : يوم القيامة ـ قال عبد الله بن عمر :

ـ قال النبى ﷺ : « **ما من مولود يولد إلا وفى تشابك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ**

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ [سورة التغابن الآية١ـ٥ » .

قال أبو سعيد الخدرى :

خطبنا النبى ﷺ عشية فذكر شيئا مما يكون فقال :

« يولد الناس على طبقات شتى : يولد الرجل مؤمنا ، ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا ، ويولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت كافرا، ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت مؤمنا » .

وقال عبد الله بن مسعود : قال النبى ﷺ :

« خلق الله فرعون فى بطن أمه كافرا .. كافرا ، وخلق يحيى بن زكريا فى بطن أمه مؤمنا » .

وقال ابن مسعود :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبينها ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » [أخرجه البخارى ، ومسلم] .

وقال الصحابى الجليل سهل الساعدى :

إن رسول الله ﷺ قال : **« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»** [رواه مسلم] .

وعجب يوسف بن أبى عقيل لماذا تواردت هذه الأحاديث إلى رأسه الآن وهو يحمل ابنه الحجاج ؟

وقيل :

دخل الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة الثقفى على امرأته وهى تتخلل ـ أى تخلل أسنانها بالسواك لتخرج ما بينها من أذى ـ وكان ذلك أول النهار فقال:

ـ والله إن كنت باكرت الغذاء إنك لرعينة ـ الأرعن : الأعوج والأحمق ـ دنية ، وإن كان الذى تخللين منه شىء بقى فى فيك من البارحة ، إنك لقذرة .

فطلقها.

فقالت الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود :

ـ والله ما كان شىء مما ذكرت ، ولكنى باكرت ما تباكره الحرة من السواك ، فبقيت شظية فى فمى منه فحاولتها لأخرجها.

فقال المغيرة بن شعبة ليوسف بن أبى عقيل:

ـ تزوجها فإنها لخليقة بأن تأتى برجل يسود ـ أن يكون أميرًا أو سلطانا ـ.

فتزوجها يوسف بن أبى عقيل .

ولما بنى يوسف بن أبى عقيل بالفارعة بنت همام وواقعها ونام فقيل له فى النوم:

ما أسرع ما ألقحت بالمبير .

وقيل :

كان زوج الفارعة بنت همام الحارث بن كلدة الثقفى ـ طبيب العرب ـ فدخل عليها ذات يوم فوجدها تخلل أسنانها لتخرج ما بينها من أذى . . .

*** كليب .. والحجاج :**

ولد الحجاج بن يوسف سنة تسع وثلاثين من الهجرة مشوهًا لا دبر له فثقب عن دبره.

وقيل :

ولد سنة أربعين .

وقيل :

فى سنة إحدى وأربعين ، وأنه ولد ولا مخرج له حتى فتق له مخرج .

وكان يسمى كليبا ، وأنه لم يرتضع أياما حتى سقوه دم جدى ، ثم دم سالخ - السالخ : الأسود من الحيات - ولطخ وجهه بدمه فارتضع .

وقيل :

إن الشيطان تمثل ليوسف بن أبى عقيل والفارعة بنت همام فى صورة الحارث بن كلدة - طبيب ثقيف - وقال لهما :

- ما خبركما ؟

قالا :

- ابن ولد ليوسف من الفارعة وقد أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها .

فقال :

- اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه ، فإذا كان اليوم الثانى فافعلوا به كذلك ، فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسًا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود - ثعبانا - سالخا فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع .

ففعلوا به ذلك .

فهل كان هذا سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء بعد ذلك ؟

ونشأ الحجاج بن يوسف الثقفى لبيبا فصيحا حافظا للقرآن ، وكان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف .

*** خلقك الله شقيا :**

ذات يوم كان يوسف بن أبى عقيل وابنه الحجاج جالسين فمر بهما سليم بن عنز - كان قاضى مصر ، وكان من كبار التابعين ، وكان ممن شهد خطبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالجابية لما ذهب الفاروق إلى الشام ليفتح بيت المقدس، وكان سليم بن عنز من الزهادة والعبادة على جانب عظيم ، وكان يختم القرآن كل ليلة - فنهض إليه يوسف بن

أبى عقيل فسلم عليه وقال له :

ـ إنى ذاهب إلى أمير المؤمنين فهل من حاجة لك عنده ؟

قال سليم بن عنز :

ـ نعم ، تسأله أن يعزلنى عن القضاء .

فقال يوسف بن أبى عقيل فى عجب :

ـ سبحان الله ، والله لا أعلم قاضيا اليوم خيرا منك .

ثم رجع يوسف بن أبى عقيل إلى ابنه الحجاج فقال معاتبا :

ـ يا أبت أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفى ؟

فقال يوسف بن أبى عقيل :

ـ يا بنى : والله إنى لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله .

فتساءل يوسف بن أبى عقيل :

ـ ولم يا بنى ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبى بكر وعمر ، فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ـ عبد الملك بن مروان ـ ولا يرونها شيئا عند سيرتهما فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ، ولا يرون طاعته ، والله لو خلص لى من الأمر شىء لأضربن عنق هذا وأمثاله .

هل أعلن الحجاج عن نفسه وأن أكثر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا سبق إليها سواه؟

فقال يوسف بن أبى عقيل :

ـ والله إنى لأظن أن الله عز وجل خلقك شقيا .

لقد كان يوسف بن أبى عقيل ذا وجاهة عند الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، ورأى فى ابنه الحجاج شهامة وحبا لسفك الدماء، فهل كانت فراسته صحيحة صادقة؟

*** من الطائف إلى دمشق :**

قدم يوسف بن أبى عقيل وابنه الحجاج دمشق فكانا عند روح بن زنباع وزير أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فقال أمير المؤمنين لروح بن زنباع :

- إن الجيش لا ينزلون لنزولى ، ولا يرحلون لرحيلى .

فلما سمع روح بن زنباع شكوى أمير المؤمنين قال :

- عندى رجل توليه ذلك .

فتساءل عبد الملك بن مروان :

- من هذا الرجل ؟

قال روح بن زنباع :

- الحجاج بن يوسف الثقفى .

فولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف أمر الجيش .

فكان لا يتأخر أحد فى النزول والرحيل - كان الحجاج بن يوسف أول من جعل الخدمة العسكرية إجباريا - حتى اقتحم فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون فضربهم وأحرق الفسطاط .

فشكا روح بن زنباع ذلك إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فسأل الحجاج :

- لم صنعت هذا ؟

قال الحجاج بن يوسف :

- لم أفعله ، إنما فعله أنت .

فتساءل عبد الملك بن مروان في عجب :

- كيف ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ إن يدى يدك ، وسوطى سوطك ، وما ضرك إذا أعطيت روحا فسطاطين بدل فسطاطه ، وبدل الغلام غلامين ؟ ولا نكسر فى الذى وليتنى .

ففعل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان . . **وارتفع شأن الحجاج عنده.**

*** الفتنة الثانية :**

فى سنة ثلاث وستين من الهجرة بويع لمعاوية بن يزيد بن أبى سفيان بالخلافة بالشام، ولعبد الله بن الزبير بن العوام بالحجاز .

وكان معاوية بن يزيد مريضا فلم يخرج إلى الباب ولا صلى بالناس وكانت مدة خلافته أربعين يوما .

وقيل :

ثلاثة أشهر .

ولما احتضر معاوية بن يزيد قيل له :

ـ ألا تستخلف ؟

قال معاوية بن يزيد :

ـ ما أصبت من حلاوتها ـ الخلافة ـ فلم أتحمل مرارتها ؟ لا أتزود مرارتها وأترك لبنى أمية حلاوتها .

ومات وهو له إحدى وعشرون سنة .

ولما بلغ عبد الله بن الزبير خبر وفاة معاوية بن يزيد بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير ومن معه من عسكر الشام الذين جاءوا وحاصروه ، فناداهم ابن الزبير وأهل مكة:

ـ علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟

فلم يصدقوهم ، ولما بلغ الحصين بن نمير خبر موت معاوية بن يزيد رحل هو ومن معه نحو مدينة رسول الله ﷺ .

واستمرت المناوشات بين أهل الشام وأهل الحجاز حتي بويع عبد الملك بن مروان بالشام فسار إلى مصعب بن الزبير بالعراق فقتله ودعا عبد الملك بن مروان أهل العراق إلى بيعته فبايعوه .

قال الحجاج بن يوسف لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

- قد رأيت فى المنام أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته ، فابعثنى إليه وولنى قتاله.

فبعث عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير وكتب معه أمانا لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا - بايعوا عبد الملك بن مروان - .

فسار الحجاج بن يوسف فى ثلاثة آلاف فى جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين من الهجرة ، ولم يعرض الحجاج المدينة ، ونزل الطائف ، وكان يبعث الخيل إلى عرفة ، ويبعث عبد الله بن الزبير أيضا فيقتتلون بعرفة فتهزم خيل ابن الزبير فى كل ذلك وتعود خيل الحجاج بن يوسف بالظفر .

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى دخول الحرم وحصر عبد الله ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفوق أصحابه ويستمده.

فكتب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى طارق بن عمرو مولي عثمان يأمره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ، وأخرج عامل عبد الله ابن الزبير عنها **وجعل عليها رجلا من أهل الشام اسمه ثعلبة** ، فكان ثعلبة يخرج المخ وهو على منبر النبى ﷺ ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيظ أهل مدينة رسول الله ﷺ .

وكان ثعلبة مع ذلك شديدا على أهل الزبير .

وقدم طارق بن عمرو على الحجاج بن يوسف بمكة فى سلخ ذى الحجة - فى آخره - فى خمسة آلاف .

*** الحجاج بن يوسف يرمى الكعبة بالمنجنيق :**

حج الحجاج بن يوسف بالناس تلك السنة ، **إلا أنه لم يطف بالكعبة ولا سعى بين الصفا والمروة فقد منعه عبد الله بن الزبير** ، وكذلك لم يحج عبد الله بن الزبير ولا أصحابه **لأن الحجاج بن يوسف منعهم من الوقوف بعرفة** ، ولم يرموا الجمار ونحر عبد الله بن الزبير بدنة بمكة .

وحصر الحجاج عبد الله بن الزبير ونصب المنجنيق على جبل أبى قبيس ورمى به الكعبة ـ كان عبد الملك بن مروان ينكر ذلك أيام أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، ثم أمر به ـ فكان الناس يقولون :

خُذِل فى دينه .

ولما رمى الحجاج بن يوسف الكعبة بالمنجنيق رعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة ، فأعلم ذلك أهل الشام وأمسكوا أيديهم ، فأخذ الحجاج بن يوسف حجر المنجنيق بيده ، فوضعه فيه ورمي به معهم .

فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحاب الحجاج اثنى عشر رجلا ، فانكسر أهل الشام فقال الحجاج بن يوسف :

ـ يا أهل الشام لا تنكروا هذا ، فإنى ابن تهامة وهذه صواعقها ، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا .

فلما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت من أصحاب عبد الله بن الزبير عدة ـ لأن الفئتين كلاهما على باطل ـ .

*** إنك فى شهر حرام وبلد حرام :**

حج عبد الله بن عمر تلك السنة فأرسل إلى الحجاج بن يوسف الثقفى :

أن اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك فى شهر حرام وبلد حرام ، وقد وفدت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا ، وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف ، فاكفف عن الرمى حتي يقضوا ما يجب عليهم بمكة .

فكف الحجاج عن الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا حول الكعبة وسعوا بين الصفا والمروة .

ولم يمنع عبد الله بن الزبير الحاج من الطواف والسعى .

ووقف الحجاج بن يوسف يخطب وأخر الصلاة فقام عبد الله بن عمر وقال له:

ـ أخرت الصلاة . . إن الشمس لا تنتظرك .

فغضب الحجاج بن يوسف الثقفى ، كيف يجرؤ ابن عمر على هذا القول وهو

الذى يرهبه كل شىء ؟ فقال الحجاج متوعدًا :

ـ لقد هممت أن أضرب الذى فيه عيناك ـ يعنى رأس ابن عمر ـ.

وهم عبد الله بن عمر أن يقول :

إن تفعل فأنت سفيه مسلط.

ولكنه سكت فقد كان يعلم أن الحجاج بن يوسف فى سيفه رهق وعقوق وكان كثير القتل وسفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره.

*** أصحاب عبد الله بن الزبير يتفرقون عنه :**

راح الحجاج بن يوسف يرمى الكعبة بالمنجنيق ، وكان الحجر يقع بين يدى ـ أمام ـ ابن الزبير وهو يصلى فلا ينصرف .

وقدم على عبد الله بن الزبير قوم من الأعراب فقالوا :

ـ قدمنا للقتال معك .

فنظر فإذا مع كل واحد منهم سيف كأنه شفرة وقد أخرج من غمده فقال:

ـ يا معشر الأعراب : لا قربكم الله ، فوالله إن سلاحكم لرث ، وإن حديثكم لغث ، وإنكم لقتال فى الجدب ، أعداء فى الخصب .

فتفرقوا .

وظل القتال بين أصحاب الحجاج وابن الزبير ، فغلت الأسعار عند عبد الله بن الزبير ، وأصاب أصحابه مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسم لحمها فى أصحابه، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد ـ مكيال ـ الذرة بعشرين درهما ، وإن بيوت عبد الله بن الزبير لمملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا .

وكان الحجاج وأهل الشام ينتظرون فناء ما عند ابن الزبير ، ولكنه كان يمسكه ولا ينفق منه إلا ما يمسك الرمق ويقول :

ـ أنفس أصحابى قوية ما لم يفن .

وتفرق الناس عن ابن الزبير وخرجوا إلى الحجاج بالأمان وكانوا نحو عشرة آلاف، وكان ممن فارق ابن الزبير ابناه : حمزة ، وحبيب ، أخذا لأنفسهما أمانا .

فقال عبد الله بن الزبير لابنه الزبير :

ـ خذ لنفسك أمانا كما فعل أخواك ، فوالله إنى لأحب بقاءكم .

فقال الزبير بن عبد الله :

ـ ما كنت لأرغب بنفسى عنك .

واشتد حصار أهل الشام ورموا البيت الحرام بالمنجنيق وحرقوه بالنار فترك عبد الله ابن الزبير الكعبة ليراها الناس محترقة ليحرض من كان معه على قتال الحجاج بن يوسف وأهل الشام .

*** ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر :**

لما تفرق أصحاب عبد الله بن الزبير عنه خطب الحجاج بن يوسف أهل الشام فقال:

قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد والضيق .

ففرحوا واستبشروا وتقدموا فملأوا ما بين الحجون ـ أعلا مكة ـ إلى الأبواب .

دخل ابن الزبير على أمه ذات النطاقين فقال:

ـ يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

قالت أسماء بنت أبى بكر :

ـ أنت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك ، وإن قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن .

قال ابن الزبير :

ـ يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى .

قالت ذات النطاقين :

- يابنى إن الشاة إذا ذبحت لا تتألم بالسلخ - لا يهم الشاة سلخها بعد ذبحها - فامض على بصيرتك واستعن بالله .

فقبل رأسها وقال:

- هذا رأيى والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعانى إلى الخروج إلا أن أعلم رأيك ، فقد زدتنى بصيرة ، فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله فإن ابنك لم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربى ، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكنى أقوله تعزية لأمى حتى تسلو عنى .

قالت أسماء بنت أبى بكر :

إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلا ، إن تقدمنى احتسبتك - عند الله - وإن ظفرت سررت بـظفرك ، أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك .

قال عبد الله بن الزبير :

- جزاك الله خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى .

قالت بنت الصديق :

- لا أدعه لك أبدا ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق .

ثم قالت أسماء بنت أبى بكر :

- اللهم ارحم طول القيام فى الليل الطويل وذلك النحيب - النُجيب - والظمأ في هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبى .

اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين.

وتناول عبد الله بن الزبير يديها ليقبلها فقالت أمه :

- هذا وداع فلا تبعد .

قال ابن الزبير :

- جئت مودعا لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا .

قالت ذات النطاقين :

ـ امض على بصيرتك وادن ـ اقترب ـ منى حتى أودعك .

فاقترب منها فعانقها وقبلها ، فوقعت يدها على الدرع فقالت :

ـ ما هذا صنيع من يريد ما تريد ـ تعنى من يبحث عن الشهادة ـ ؟

قال عبد الله بن الزبير :

ـ ما لبسته إلا لأشد منك .

قالت بنت الصديق :

ـ فإنه لا يشد منى .

فنزع ابن الزبير الدرع ، فقالت أسماء بنت أبى بكر :

ـ البس ثيابك مشمرة .

فخرج عبد الله بن الزبير وهو يقول :

إنى إذا أعرف يومى أصبر   وإنما يعرف يومه الحر

إذ بعضهم يعرف ثم ينكسر

فسمعته أمه فقالت :

ـ تصبر إن شاء الله ، أبواك أبو بكر والزبير ، وأمك صفية بنت عبد المطلب.

فحمل ابن الزبير على أهل الشام حملة منكرة فقتل منهم ، ثم انكشف هو وأصحابه ثم عاد ابن الزبير يقاتل حتى قتل .

وكان مقتل عبد الله بن الزبير فى جمادى سنة ثلاث وسبعين وكان عمره اثنتين وسبعين سنة ، وكانت خلافته تسع سنين .

وسار الحجاج بن يوسف ، وطارق بن عمرو حتي وقفا على ابن الزبير . فقال طارق:

ـ ما ولدت النساء أذكر من هذا .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أتمدح مخالف أمير المؤمنين ؟

قال طارق بن عمرو :

ـ نعم هو أعذر لنا ، ولولاك هذا لما كان لنا عذر وإنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو فى غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا بل بفضل علينا .

فلما بلغ كلامه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قال :

ـ صدق طارق بن عمرو .

*** لما قتل ابن الزبير :**

لما قتل عبد الله بن الزبير كبر أهل الشام فرحا بقتله .

فقال عبد الله بن عمر :

ـ انظروا إلى هؤلاء ولقد كبر المسلمون فرحا بولادته ، وهؤلاء يكبرون فرحا بقتله.
ولما قتل الحجاج بن يوسف عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فأمر الحجاج بن يوسف الناس فجمعوا فى المسجد ، ثم صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

يا أهل مكة : بلغنى إكباركم قتل ابن الزبير ، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ، ونازع فيها أهلها فنزع طاعة الله ، واستكن بحرم الله ، ولو كان شىء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله ، إن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من **روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .**

اذكروا الله يذكركم .

وبعث الحجاج بن يوسف برأس عبد الله بن الزبير إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وأخذ جثته فصلبها على الثنية اليمنى بالحجون .

*** الحجاج بن يوسف وبنت الصديق :**

دخل الحجاج بن يوسف الثقفى على أسماء بنت أبى بكر يعزيها فى ابنها فلما رأت وجهه قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يخرج من ثقيف رجلان : مبير ـ مهلك أى يسرف فى إهلاك الناس ـ وكذاب ، فأما الكذاب فابن أبى عبيد ـ تعنى المختار ـ وأما المبير فأنت هو يا حجاج » .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ إن ابنك ألحد فى هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم .

قالت أسماء بنت أبى بكر :

ـ كذبت ، كان بارا بوالديه ، صواما قواما ، يا حجاج : سمعت رسول الله ﷺ نهى عن المثلة .

يقول يحيى بن التميمى :

دخلت مكة بعد قتل عبد الله بن الزبير فرأيته مصلوبا ، ورأيت أمه أسماء عجوزا طوالة مكفوفة فدخلت حتى وقفت على الحجاج فقالت:

ـ أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ المنافق .

قالت أسماء بنت أبى بكر :

ـ لا والله ، ما كان منافقا ، وقد كان صواما قواما .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ اذهبى فإنك عجوز قد خرفت .

قالت ابنة الصديق :

ـ لا والله ما خرفت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يخرج من ثقيف كذاب ومبير ، فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت هو** » .

وكان عبد الله بن الزبير قبل قتله بقى أياما يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن ، فلما صلب ظهرت منه رائحة المسك .

وقيل :

إن الحجاج بن يوسف لما صلب ابن الزبير صُلب مع كلبٍ ميتٍ .

وقيل :

صلب معه سنورا ـ قطا ـ

فغلب على ريح المسك .

وقيل :

أرسلت أسماء بنت أبى بكر إلى الحجاج بن يوسف فقالت :

- قاتلك الله ، على ماذا أصلبته ؟

قال الحجاج :

- استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة ، وكانت له.

فاستأذنته فى تكفينه ودفنه .

فأبى الحجاج .

ومنع الحجاج بن يوسف الصلاة على عبد الله بن الزبير .

وقيل :

إن عروة بن الزبير صلى عليه .

وذكر مسلم فى صحيحه :

إن عبد الله بن الزبير ألقى فى مقابر اليهود .

*** لما مر عبد الله بن عمر بقبر ابن الزبير :**

مر ابن عمر بقبر عبد الله بن الزبير فقال :

السلام عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، ولقد كنت صواما قواما وصولا للرحم ، أما والله إن قوما أنت شرهم لنعم القوم .

*** الحجاج بن يوسف يحاول قتل عبد الله بن عمر :**

منذ أن بويع لمعاوية بن يزيد بالخلافة بالشام ، ولعبد الله بن الزبير بالحجاز اعتزل عبد الله بن عمر الفتنة وراح بنو أمية يغرون ويهددون ابن عمر من ناحية لمبايعة معاوية ابن يزيد وأخذ ابن الزبير يرغب ويطلب من عبد الله بن عمر أن يبايعه ، ولكن ابن عمر لم يبايع هذا ولا ذاك ولما مات معاوية بن يزيد جاء مروان بن الحكم عبد الله بن عمر وقال له :

- هلم يدك نبايع لك فإنك سيد العرب وابن سيدها .

قال ابن عمر :

ـ كيف أصنع بأهل المشرق ؟

قال مروان بن الحكم :

ـ نضربهم حتي يبايعوا .

قال عبد الله بن عمر :

ـ والله ما أحب أنها دانت لى سبعين سنة وأنه قتل فى سببى رجل واحد .

وتذكر ابن عمر قول مروان بن الحكم :

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

وجاء رجل ابن عمر فقال له :

ـ ما أحد شر لأمة محمد منك .

فتساءل ابن عمر :

ـ لم ؟ فوالله ما سفكت دماءهم ولا فرقت جماعتهم ولا شققت عصاهم .

قال الرجل :

ـ إنك لو شئت ما اختلف فيك اثنان .

قال عبد الله بن عمر :

ـ ما أحب إنها ـ الخلافة ـ لى ورجل يقول: لا وآخر يقول : بلى .

وكان ابن عمر يقول :

ـ لا أقاتل فى الفتنة وأصلى وراء من غلب .

وقيل لعبد الله بن عمر :

ـ أتصلى مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضا ؟

فقال ابن عمر :

ـ من قال: حى على الصلاة أجبته ، ومن قال: حى على الفلاح أجبته ، ومن قال: حى على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله قلت : لا .

ولما حاصر الحجاج بن يوسف عبد الله بن الزبير ، اعتزل ابن عمر ليالى قتال ابن الزبير والحجاج بمنى ، **وكان لا يصلى وراء الحجاج** .

وخطب الحجاج بن يوسف فقال :

إن ابن الزبير غَيَّر كتاب الله .

فقال عبد الله بن عمر :

- ما سلطه الله على ذلك ، ولا أنت معه ، ولو شئت أقول : كذبت لفعلت .

وجاء أهل الشام بأسير إلى الحجاج بن يوسف فقال :

- قسم يا سالم - سالم بن عبد الله بن عمر - فاضرب عنق هذا الأسير .

فسل سالم بن عبد الله سيفه ، فأسرع الناس إلى ابن عمر وقالوا له :

- إن ابنك ذهب ليضرب عنق الأسير .

فقال ابن عمر :

- ما كان ليعمل .

وأتى عبد الله بن عمر ابنه سالما فسأله :

- يا هذا : أتوضأت الغداة وضوءًا حسنا وصليت فى الجماعة ؟

قال سالم بن عبد الله :

- نعم .

وغمد سالم سيفه ورجع فسأله الحجاج بن يوسف :

- ما منعك أن تضرب عنق الأسير ؟

قال سالم بن عبد الله :

- ما سمعت من والدى يحدث عن عمر عن رسول الله ﷺ قال : أيما رجل توضأ صلاة الغداة وضوءًا حسنا وصلى في الجماعة كان فى جوار الله ، ما كنت أقتل جار الله يا حجاج .

ولما بلغ عبد الله بن عمر قول ابنه قال :

ـ ما أخطأت أمه حين سمته سالما .

وكان عبد الله بن عمر يتقدم فى المواقف بعرفة وغيرها إلى المواضع التى كان خاتم الأنبياء ﷺ وقف بها ، وكان ذلك يعز على الحجاج بن يوسف ، فأمر رجلا من أهل الشام معه حربة كانت مسمومة ، فلما دفع ـ خرج ـ الناس من عرفة دنا ذلك الرجل من ابن عمر وأمرّ الحربة المسمومة على قدمه وهى فى غرز راحلته .

ورأى سالم بن عبد الله دمايسيل على عنق ناقة أبيه فتساءل :

ـ يا أبت : ما هذا الدم الذى يسيل على عنق النجيبة ؟

فقال ابن عمر :

ـ ما شعرت به فأنخ .

فأناخ سالم الناقة ، ونزع عبد الله بن عمر رجله من الغرز وقد لصقت قدمه به ، فقال :

ـ ما شعرت بما أصابنى .

واستشعر عبد الله بن عمر الألم عند الجمرة ، وبعد أن رمى الجمار اشتد وجعه فلزم الفراش ، ولما ثقل ـ اشتد به المرض ـ ذكروا له الوصية فقال ابن عمر :

ـ الله أعلم ما كنت أصنع فى مالى ، وأما رباعى وأرضى لا أحب أن أشرك مع ولدى فيها أحد .

ثم قال عبد الله بن عمر :

ـ اللهم لا تجعل منيتى ـ موتى ـ بمكة .

وجاء الحجاج بن يوسف يعود ابن عمر لما علم أنه طريح الفراش ، ودخل عليه وسلم وجعل يتساءل :

ـ من فعل بك هذا يا أبا عبد الرحمن ؟

فتساءل ابن عمر :

ـ ما تصنع به ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ قتلنى الله إن لم أقتله .

فقال أبو عبد الرحمن :

ـ ما أراك فاعلا .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ لم ؟ لو أعلم من أصابك والله لقتلته .

فأطرق عبد الله بن عمر ثم قال :

ـ أصابنى من أمر من يحمل السلاح فى الحرم لا يحل فيه حمله .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ يا أبا عبد الرحمن إنا لو نعلم ما أصابك عاقبناه .

فقال ابن عمر :

ـ أنت أصبتنى ، حملت السلاح فى يوم لا يحمل فيه السلاح ، وأمرت الذى نخسنى بالحربة .

فلما سمع الحجاج ذلك وثب كالمغضب وخرج مسرعا ، حتى إذا كان فى صحن دار ابن عمر التفت إلى من خلفه وقال :

ـ إن هذا يزعم أنه يريد أن نأخذ بالعهد الأول .

ولما اشتد وجع أبى عبد الرحمن قال :

ـ ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث .

فقيل له :

ـ ما هن يا أبا عبد الرحمن ؟

قال عبد الله بن عمر :

ـ ظمأ الهواجر ، ومكابدة الليل ، ولا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية ـ ما أجدنى آسى على شيء فاتنى من الدنيا إلا أنى لم أقاتل مع على بن أبى طالب الفئة الباغية ـ

ولما أدرك ابن عمر دنو الأجل قال :

ـ لا تدفنونى في الحرم .

ومات الصحابى الجليل المثابر الأواب متأثرا بوخذة الحربة المسمومة ، ودفن فى مقبرة المهاجرين نحو ذى طوي بمكة وهو ابن سبع وثمانين سنة .

*** الحجاج يتزوج ابنة النعمان بن بشير :**

تزوج الحجاج بن يوسف ابنة الصحابى الجليل النعمان بن بشير الأنصارى .

*** لما انتهى الحجاج بن يوسف من أمر عبد الله بن الزبير .**

لما فرغ الحجاج من أمر ابن الزبير دخل مكة فبايعه أهلها لعبد الملك بن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم ، واستعمله أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على مكة والمدينة .

*** لا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه :**

لما مشى الحجاج بن يوسف وقدم المدينة لقى شيخا خارجا من مدينة رسول الله ﷺ فسأله :

ـ كيف حال المدينة ؟

قال الشيخ :

ـ بشر حال ، قتل ابن حواري رسول الله ﷺ .

فتساءل الحجاج بن يوسف :

ـ ومن قتله ؟

قال الشيخ :

ـ الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته ، ومن قليل المراقبة لله .

فغضب طاغية ثقيف غَضبًا شديدا ثم قال :

ـ أيها الشيخ : أتعرف الحجاج إذا رأيته ؟

قال الشيخ :

ـ نعم ، فلا عرفه الله خيرا ولا وقاه ضرا .

فكشف الحجاج عن لثامه وقال:

ـ ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة .

فلما تحقق الشيخ الجد قال:

ـ والله إن هذا لهو العجب يا حجاج ، لو كنت تعرفنى ما قلت هذه المقالة ، أنا العباس بن أبى داود أصرع كل يوم خمس مرات .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ انطلق أيها الشقى فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه .

وظل الحجاج بن يوسف في مدينة رسول الله ﷺ شهرا أو شهرين فأساء إلى أهلها واستخف بهم وقال :

ـ أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان .

وختم أيدى جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافا بهم كما يفعل بأهل الذمة ـ اليهود والنصارى ـ منهم : الصحابى الجليل جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، وخادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك ، والصحابى الجليل سهل بن سعد .

*** الحجاج بن يوسف يعود إلى مكة :**

لما هم الحجاج بن يوسف بالخروج من مدينة رسول الله ﷺ قال :

الحمد لله الذى أخرجنى من أم نتن ، أهلها أخبث بلد وأغشه لأمير المؤمنين ، وأحسدهم له على نعمة الله ، والله لو ما كانت تأتينى كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار أعوادًا يعودون بها رمة قد بليت ، يقولون : منبر رسول الله ﷺ وقبر رسول الله ﷺ .

فبلغ ذلك جابر بن عبد الله فقال :

ـ إن وراءه ما يسوءه ، فقد قال فرعون ما قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [سورة النازعات الآية : ٢٤] ثم أخذه الله بعد أن أنظره ـ أمهله ـ .

وكانت ولاية الحجاج بن يوسف مدينة رسول الله ﷺ سنة أربع وسبعين فى صفر.

وقيل :

إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لما قتل الحجاج بن يوسف عبد الله بن الزبير استنابه على مكة والمدينة والطائف واليمن .

*** ولاية الحجاج بن يوسف العراق :**

فى سنة خمس وسبعين ولى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فاستخلف خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العاص على البصرة بعد أن هلك أخوه بشر بن مروان بالبصرة وهو على الكوفة والبصرة ، ومكث خالد بن عبد الله نحوا من شهرين ، ثم ولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف العراق كله غير خراسان وسجستان ، فإنه كان عليهما أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فأقره عبد الملك سنتين بعد قدوم الحجاج من الحجاز ، وأبى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أن يقر خالد بن عبد الله على عمله ، وكلم فى ذلك ، فلم يجب إليه وقال:

ـ أساء التدبير ، وعجز عن العراق ، وضعف عن أهل المصر ـ الكوفة والبصرة ـ فقدم الحجاج بن يوسف من الحجاز وكان واليا عليه .

أقبل الحجاج بن يوسف الثقفى فى اثنى عشر راكبا على النجائب ـ النوق الذلول التى تسابق الريح ـ حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار ، فبدأ الحجاج بالمسجد فصعد المنبر وهو ملثم بعمامة خز ـ صوف ـ حمراء فقال :

ـ على بالناس .

ثم جلس ساعة لا يتكلم ، فقال محمد بن عمير بن عطارد للهيثم بن الأسود :

ـ ماله ـ ترحه الله ـ لا يتكلم ؟ ما أعْياه وأشأمه وأذمه ، والله إنى لأظن خيره أسوأ من مرآته .

ولما أطال الحجاج السكوت تناول محمد بن عمير حصباء وأراد أن يحصبه بها ـ يقذفه بهذه الحصى ـ وقال :

ـ قاتله الله ما أغباه وأذمه ، والله إنى لأحسب خيره كروائه .

فلما حسر الحجاج نقابه تنثر الحصباء من يده وهو لا يدرى به .

وقال الحجاج بن يوسف :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لأنتظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقيها تشميرا :

هذا أوان الحرب فاشتدى زيم   قد لفها الليل بسواق حطـــم
ليس براعى إبــل ولا غنـــم   ولا بجزار على ظهر وضـــم
قد لفـها الليـل بعصابــــى   مهاجــر ليــس بأعــرابى
ليس أوان بكـــرة الخـــلاط   جاءت به والقلص الأعــلاط
تهوى هوى سابق الغطاط

ابن جلا : هو الصبح لأنه يجلو الظلمة .

فاشتدى زيم : هو اسم الحرب . .

الحطم : الذى يحطم كل ما مر به .

الوضم : ما وقى به اللحم عن الأرض .

العصلبى : الشديد .

الأعلاط : من الإبل التى لا أرسان لها عليها .

إنى والله يا أهل العراق لا أحلق إلا فريت ولا أعد إلا وفيت ، والله إنى لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله .

إن الله ضرب مثلا ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة النحل الآية : ١١٢] فأنتم أولئك ، أو أشباه أولئك .

إن أمير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فوجهنى إليكم ورمى بى فى نحوركم ، فإنكم أهل بغى وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم فى الشر وسننتم سُنن الغى فاستوثقوا واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان ولأمرينكم به حتى تدروا ، ولألحونكم لحو العود ، ولأعصبنكم عصب السلمة

حتى تذلوا ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا - تتركوا - العصيان وتنقادوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا ، إنه والله ما يقعقع لى بالشنان ، ولا أغمز تغماز التين ، ولا أجلس على الدبر - أكره الغيبة والنميمة - إنى امرؤ فررت عن ذكاء، وجربت إلى الغاية وانتضت عن تجربة ، فإياى وهذه الجماعات فلا يركبن رجل الوحدة .

أقسم بالله لتقبلن على الإنصاف ، ولتدعن الإرجاف ، وقيلا وقالا وما تقول وما يقول وأخبرنى فلان ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده ، فيم أنتم وذاك؟

والله لتستقيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضربا يدع النساء أيامى ، والولدان يتامى ، حتي تذروا السمهى ، وتقلعوا عن ها وها ، ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جبى فئ ، ولا قوتل عدو ، ولعطلت الثغور ، ولولا أنهم يغزون كرها ما غزوا طوعًا وقد بلغنى رفضكم المهلب - بعث بشر بن مروان المهلب إلى حرب الأزارقة - طائفة من الخوارج - فى أهل البصرة ووجوههم فلقيهم عند رامهرمز - وافيا لكم على مصركم عاصين مخالفين وإنى أقسم بالله لا أجد أحدا من عسكره بعد ثلاث إلا ضربت عنقه وأنهبت داره .

ثم أمر الحجاج بكتاب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فقرئ على أهل الكوفة .

فلما قرأ القارئ :

أما بعد ، سلام عليكم فإنى أحمد الله إليكم .

قال الحجاج بن يوسف :

- اقطع .

ثم قال :

- يا عبيد العصا يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام .

أما بالله لأؤدبنكم غير هذا الأدب .

ثم قال للقارئ :

- اقرأ .

فلما قرأ : سلام عليكم .

قالوا : بأجمعهم :

ـ سلام الله على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

ثم دخل الحجاج بن يوسف منزله لم يزد عن ذلك ، ثم دعا العرفاء وقال:

ـ ألحقوا الناس بالمهلب واتتونى بالبراءات بموافقاتهم ولا تغلق أبواب الجسر ليلاً ولا نهارًا حتى تنقضى هذه المدة .

فعجم عيدانها : أى عضها واختبرها .

لاعصبنكم عصب السلمة : العصب : القطع ، والسلم : شجر من العضاه .

لا أخلق إلا فريت : الخلق : التقدير ، ويقال : فريت القديم إذا أصلحته .

السمهى : الباطل ، وأصله ما تسميه العامة مخاط الشيطان .

العطاط : ضرب من الطير .

فلما كان اليوم الثالث سمع الحجاج بن يوسف تكبيرًا فى السوق فخرج حتي جلس على المنبر فقال :

يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق .

إنى سمعت تكبيرا ليس بالتكبير الذى يراد به وجه الله ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب ، وقد عرفت أنها عجاجة ـ العج : رفع الصوت ، والعجاج : الغبار والدخان ـ تحتها قصف ، يابنى اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأيامى : ألا يربع رجل منكم على ظلعه ـ ظفره ـ ، ويحسن حقن دمه ، ويعرف موضع قدمه ؟

فاقسم بالله لاشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدبا لما بعدها .

فقام عمير بن ضابئ الحنظلى التميمى فقال :

ـ أصلح الله الأمير ، أنا فى هذا البعث وأنا شيخ كبير عليل وابنى هذا أشب منى فقال الحجاج بن يوسف :

ـ هذا خير لنا من أبيه .

ثم تساءل الحجاج :

ـ ومن أنت ؟

قال :

ـ أنا عمير بن ضابئ .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ أسمعت كلامنا بالأمس ؟

قال عمير بن ضابئ :

ـ نعم .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ ألست الذى غزا عثمان بن عفان ؟ ـ ثار على أمير المؤمنين عثمان وحاصره فى المدينة واشترك فى قتله ـ

قال عمير بن ضابئ :

ـ نعم .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ يا عدو الله أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً ؟ وما حملك على ذلك ؟

قال عمير بن ضابئ :

ـ إنه حبس أبى وكان شيخا كبيرا .

قال الحجاج بن يوسف :

أولست القائل :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى ترکت على عثمان تبكى حلائله ؟

إنى لأحسب أن فى قتلك صلح المصرين ـ الكوفة والبصرة ـ .

وأمر به فضربت رقبته وأنهب ماله .

وقيل :

إن عنبسة بن سعيد بن العاص قال للحجاج :

ـ أتعرف هذا ؟

قال الحجاج :

ـ لا .

قال عنبسة بن سعيد :

ـ هذا أحد قتلة عثمان .

فقال الحجاج :

ـ أى عدو الله ، أفلا إلى أمير المؤمنين وبعثت بديلاً ؟

ثم أمر الحجاج بعمير بن ضابئ فضربت عنقه .

وأمر الحجاج بن يوسف مناديا فنادى :

ـ ألا إن عمير بن ضابئ أتى بعد ثلاثة ـ أيام ـ وكان قد سمع النداء فأمرنا بقتله ، ألا إن ذمة الله بريئة ممن لم يأت الليلة من جند المهلب .

فخرج الناس فازدحموا على الجسر ، وخرج العرفاء إلى المهلب وهو برامهرمز ، فأخذوا كتبه بالموافاة ، فقال المهلب :

ـ قدم العراق اليوم رجل ذكر ، اليوم قوتل العدو .

كان الحجاج بن يوسف ابن ثلاث وثلاثين سنة عندما قدم العراق فسأل عن سيرة زياد ابن أبيه ـ زياد بن أبى سفيان بن حرب أخو معاوية ـ **وقرر أن يجتنب محاسنها ويأخذ بمساوئها .**

وسأل الحجاج عن وجوه الرجال فى العراق فذكروا له زياد بن عمرو العتكى .

يقول الحجاج :

ـ فما كان أحد أثقل على منه .

وذات يوم قدم الحجاج علي أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ومعه زياد بن عمرو العتكى فى ناس من الأشراف فسألهم عبد الملك عن الحجاج فأثنوا عليه ، فما كان أحد

منهم أحسن صفة للحجاج من زياد بن عمرو ، ولا قام أحد من الأشراف مثل مقامه، لقد قال زياد :

ـ يا أمير المؤمنين : إن الحجاج سيفك الذى لا ينبو ، وسهمك الذى لا يطيش ، وخادمك الذى لا تأخذه فى أمرك لومة لائم .

يقول الحجاج بن يوسف :

ـ فلقد رأيتنى وما أحد من الخلق بعد ذلك يعدل زياد بن عمرو العتكى عندى .

*** أول من عاقب بالقتل عن التخلف عن الوجه الذى يكتب إليه .**

لما قتل الحجاج بن يوسف الثقفى عمير بن ضابئ فكان أول من عاقب بالقتل على التخلف عن الوجه الذى يكتب إليه .

يقول الشعبى :

كان الرجل إذا أخل بوجهه الذى يكتب إليه زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب نزعت عمامته ويقام للناس ويشهر أمره .

فلما ولي مصعب بن الزبير أمر العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير قال:

ـ ما هذا بشىء .

فكان الرجل إذا أخل بوجهه الذى يكتب إليه ، نزعت عمامته ويقام ويشهر أمره ويحلق رأسه ولحيته أى أضاف إليه حلق الرءوس واللحى .

ولما ولى بشر بن مروان أمر العراق بعد مقتل مصعب زاد فيه فصار يرفع الرجل عن الأرض ويسمر فى يديه مسماران فى حائط ، فربما مات وربما خرق المسمار كفه فسلم .

فقال الشاعر :

لولا مخافة بشر أو عقوبتــه ... وأن ينوط فى كفى مسمار

إذا لعطلت ثغري ثم زرتكم ... إن المحب لمن يهواه زور

فلما كان الحجاج بن يوسف قال :

ـ هذا لعب ، أضرب عنق من يخل مكانه من ثغر .

*** أخبرونى عن الولاة قبلى .**

قال المدائنى في إسناده :

قدم الحجاج فى سنة خمس وسبعين فى رجب ، فبدأ بالكوفة فخطب أهلها وتوعدهم ، وأرسل إلى وجوههم ، وإلى العامة فقال:

ـ أخبرونى عن الولاة قبلى ، ما كانوا يعاقبون به العصاة ؟

قالوا :

ـ الضرب والحبس .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ لكنى لا أعاقبهم إلا بالسيف ، إن المعصية لو ساغت لأهلها ما قتل عدو ، ولا جبى فَىءٌ ولا عز دين ، ولو لم يغزو المسلمون المشركين ، لغزاهم المشركون ، وقد أجلتكم ثالثة من جيش ابن مخنف فبرئت منه الذمة .

وقال الحجاج ليزيد بن علاقة السككى صاحب شرطه :

ـ اجعل سيفك سوطا ، فمن وجدته بعد ثالثة عاصيا فاقتله .

وقال المدائنى :

كان قدوم الحجاج الكوفة يوم جمعة فخطب ونزل فصلى وقرأ ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [سورة المعارج الآية : ١ ـ ٤] .

وقال فى خطبته :

أقسم بالله لتقبلن الإنصاف ولتتركن الإرجاف ، وكان وكان ، وأخبرنى فلان عن فلان ، والهبر والهبر لأهبرنكم بالسيف هبرًا يدع النساء أيامى ، والولدان يتامى ، وحتى تمنوا السمهى : تفرقت فى كل وجه ـ وتقلعوا عن هما وهما ، وإياى وهذه الزرافات والجماعات .

وقال ابن مخنف :

لما خطب الحجاج خطبته ، وأمر مناديه فنادى :

أن برئت الذمة عن عاص مخل بمركزه ، وجندناه بالكوفة بعد ثلاث ، فألحقوا ببعث المهلب وبمكاتبكم - حيث كتبت أسماؤهم فى ديوان الجند - من الثغور ، ومغازيكم للخوارج .

*** تمرد أهل البصرة ضد الحجاج :**

خرج الحجاج بن يوسف من الكوفة إلى البصرة واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة الثقفى .

ولما قدم الحجاج البصرة خطبهم بمثل خطبته بالكوفة وتوعد من رآه منهم بعد ثلاثة أيام ولم يلحق بالمهلب .

ثم قال :

إن الزيادة التى زادكم إياها ابن الزبير - مصعب - إنما هى زيادة ملحد منافق فاسق ولسنا نجيزها .

وكان مصعب بن الزبير قد زاد الناس مائة مائة في العطاء .

فقال عبد الله بن الجارود بن بشر بن عمرو بن جنش بن المعلى العبدى :

أيها الأمير : ليست بزيادة ابن الزبير ، إنما هى زيادة أمير المؤمنين عبد الملك ، إذ أنفذها وأجازها ، وجرت لنا على يد بشر بن مروان .

فقال الحجاج :

- ما أنت والكلام أتحسن حمل رأسك أو لأسلبنك إياه .

فتساءل عبد الله بن الجارود :

- ولم ؟ والله إنى لك لناصح ، وإن قولى هذا لقول من ورائى .

فنزل الحجاج ، ومكث أشهرا لا يذكر الزيادة .

ثم أعاد الحجاج القول فى الزيادة ، فرد عليه عبد الله بن الجارود مثل رده الأول فقام مصقلة بن كرب بن رقية فقال :

- إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها ، وقد سمعنا ما قال الأمير ، فسمعا وطاعة ، فيما أحببنا وكرهنا .

فقال عبد الله بن الجارود :

ـ يا ابن الجرمقانية ، وما أنت ؟ وما هاهنا ، ومتى كان مثلك يتكلم وينطق فى مثل هذا ؟

وأتى عبد الله بن الجارود وجوه البصرة فصوبوا رأيه وقوله ، وقال الهذيل بن عمران البرجمى ، وعبد الله بن حكيم بن زياد المجاشعى وغيرهما :

ـ نحن معك وأعوانك ، إن هذا الرجل غير كاف حتى ينقصنا هذه الزيادة ، فهلم نبايعك على إخراجه من العراق ، ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولى علينا غيره ، فإن أبى خلعناه ، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج .

فبايع الناس عبد الله بن الجارود سرا وأعطوه المواثيق على الوفاء وأخذ بعضهم على بعض العهود .

وبلغ الحجاج بن يوسف ما هم فيه فاحرز ـ حصر ـ بيت المال واحتاط فيه ، فلما تم لعبد الله بن الجارود ومن معه أمرهم أظهروه ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ست وسبعين من الهجرة .

وأخرج عبد الله بن الجارود عبد قيس على راياتهم ، وخرج الناس معه ، ولم يبق مع الحجاج بن يوسف إلا خاصته وأهل بيته .

وقطع عبد الله بن الجارود ومن معه الجسر ، وكانت خزائن الحجاج والسلاح من ورائه وأرسل الحجاج رجلا من خاصته يقال له أعين إلى ابن الجارود يستدعيه إليه فقال عبد الله بن الجارود :

ـ ومن الأمير ؟ لا ولا كرامة لابن أبى رغال ـ يعنى أبا رغال الذى أرشد أبرهة الأشرم الذى قدم بجيش يتقدمه فيل عظيم مكة ليهدم الكعبة ـ ولكن ليخرج عنا مذموما مدحورا وإلا قاتلناه .

فقال أعين :

ـ فإنه يقول لك : أتطيب نفسا بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك ؟ والذى نفسى بيده لئن لم يأتنى لأدعن قومك عامة وأهلك خاصة حديث الغابرين ـ الهالكين ـ .

وكان الحجاج قد حمل أعين هذه الرسالة .

فقال عبد الله بن الجارود :

ـ لولا أنك رسول لقتلتك يا ابن الخبيثة .

وأمر ابن الجارود أتباعه فوجئوا أعين فى عنقه ـ لووا عنقه ـ وأُخرج .

*** أتباع عبد الله بن الجارود ينهبون فسطاط الحجاج .**

اجتمع الناس لابن الجارود ، فأقبل بهم زحفا نحو الحجاج ، وكان رأيهم أن يخرجوه عنهم ولا يقاتلوه ، فلما صاروا إليه نهبوه فى فسطاطه وأخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابه ، وجاء أهل اليمن فأخذوا امرأته ابنة النعمان بن بشير ، وجاءت مضر فأخذوا امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن بن عمرو أخى الصحابى الجليل سهيل بن عمرو ، فخافه السفهاء ، ثم إن القوم انصرفوا عن الحجاج وتركوه ، فأتاه قوم من أهل البصرة فصاروا معه خائفين من محاربة الخليفة .

وجعل الغضبان بن القبعشرى الشيبانى يقول لعبد الله بن الجارود :

ـ تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك ، أما ترى من أتاه من أهل البصرة ؟ ولئن أصبح ليكثرن ناصره ولتضعفن منتكم .

قال ابن الجارود :

ـ قد قرب المساء ولكنا نعالجه بالغداة .

وكان مع الحجاج بن يوسف عثمان بن قطن ، وزياد بن عمرو العتكى الذى كان على شرطة البصرة فقال لهما الحجاج :

ـ ما تريان ؟

قال زياد بن عمرو :

ـ أن آخذ لك من القوم أمانا وتخرج حتى تلحق بأمير المؤمنين فقد ارفَض أكثر الناس عنك ولا أرى لك أن تقاتل بمن معك .

فقال عثمان بن قطن الحارثى :

ـ لكنى لا أرى ذلك .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ ولم ؟

قال عثمان بن قطن :

- إن أمير المؤمنين قد أشركك فى أمره وخلطك بنفسه واستنصحك وملكك وسلطك فسرت إلى ابن الزبير وهو أعظم خطرا فقتلته ، فولاك الله شرف ذلك وسناه، وولاك أمير المؤمنين الحجاز ، ثم رفعت فولاك وولاك العراقين ، فحيث جريت إلى المدى وأصبت الغرض الأقصى تخرج على قعود إلى الشام ، والله لئن فعلت لا نلت من عبد الملك مثل الذى أنت فيه من سلطان أبدا ، وليتضعن شأنك ، ولكنى أرى أن نمشى بسيوفنا معك فنقاتل حتى نلقى ظفرا - نصرا - أو نموت كراما .

فقال الحجاج بن يوسف :

- الرأى ما رأيت .

وحفظ الحجاج بن يوسف هذا لعثمان بن قطن الحارثى ، وحقدها - أسرها فى نفسه - على زياد بن عمرو .

*** مقتل عبد الله بن الجارود .**

لما أصبح الحجاج بن يوسف اجتمع إليه نحو ستة آلاف .

فلما رأى ابن الجارود الحجاج ومن معه قال لعبيد بن زياد بن ظبيان :

- ما الرأى ؟

قال عبيد بن زياد :

- تركت الرأى أمس حين قال لك الغضبان : تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك ، وقد ذهب الرأى وبقى الصبر .

ودعا عبد الله بن الجارود بدرع فلبسها مقلوبة فتطير وتشاءم .

وحرض الحجاج بن يوسف أصحابه وقال لهم :

- لا يهولنكم ما ترون من كثرتهم .

وتزاحف القوم ، واقتتل الجمعان ساعة ، وكاد ابن الجارود أن يظفر ، فأتاه سهم غرب فأصابه فوقع قتيلا .

ونادى منادى الحجاج بأمان الناس إلا الهذيل بن عمران البرجمى وعبد الله بن

حكيم بن زياد .

وأمر الحجاج ألا يتبعَ المنهزمون .

وحمل رأس ابن الجارود وثمانية عشر رأسا من وجوه أصحابه إلى المهلب ، **فنصبت ليراها الخوارج وييأسوا من الإختلاف .**

وحبس الحجاج عبيد بن كعب ومحمد بن عمير حيث قالا للحجاج :

ـ تأتينا لنمنعك .

وحبس الغضبان بن القبعشرى وقال له :

ـ أنت القائل : تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك ؟

قال الغضبان بن القبعشرى :

ـ ما نفعت من قيلتى له ، ولا ضررت من قيلتى فيك .

وصلب الحجاج بن يوسف عبد الله بن الجارود بين الهذيل بن عمران البرجمى، وعبد الله بن حكيم وكتب الحجاج بن يوسف إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

أما بعد :

فالحمد لله الذى حفظ أمير المؤمنين ، إنى لما نزلت منزلى من رستقاباد وثب على أهل العراق فخالفونى ونابذونى ، ودخل فسطاطى ، وانتهبت أموالى وقالوا :

ـ اخرج من بلدنا إلى من بعثك إلينا .

ففارقنى البعيد ، وأسلمنى القريب ، ويئس منى الشقيق ، فشددت عليهم بسيفى، ولقيتهم بشيعتى ـ أتباعى ـ وقلت :

ـ الموت قبل البراح .

فوالله ما رمت العرصة حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصارًا ، فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم ، فقتل الله عز وجل طاغية القوم عدو الله ابن زياد، وثمانية عشر من رءوسهم ، وضرب الله عز وجل وجوههم ، فأخذوا شرقا وغربا ، ثم إنى آمنت الناس غائبهم وشاهدهم ، فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارهم ـ بلادهم ـ ولله الحمد كثيرا .

والسلام .

فكتب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

أما بعد :

فقد بلغنى كتابك ، وأنت الناصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب ، فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم .

والسلام .

وأتى الحجاج بن يوسف بخليفة بن خالد بن الهرماس وقد ضرب على وجهه ، فقال له الحجاج :

ـ من أنت ؟

قال خليفة بن خالد :

ـ أحد الكفرة الفجرة .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ خلوا سبيله .

فقال سويد بن صامت العجلى :

ـ هذا الذى يقول :

فالله حجاج بن يوسف حاكما   أراق دماء المسلمين بلا جرم

فأمر الحجاج بخليفة بن خالد فقتل .

*** ليس مثله أتهم**

بعث عبد الملك بن مروان عبد الرحمن بن مسعود الفزارى إلى الحجاج بن يوسف وأهل العراق لينظر فى مظالمهم ، وما يشكون من الحجاج ، وأمر بإطلاق كراز وكان قد كلم فيه ، فبلغ الحجاج بن يوسف ذلك فعجل على كراز وراشد بن عوف ومسلم مولى مالك بن مسمع فقطع أيديهم وأرجلهم ، فدخل عبد الرحمن بن مسعود ودماؤهم تشخب .

ولما قدم ابن مسعود على الحجاج صعد الحجاج المنبر ، وصعد ابن مسعود درجتين أو ثلاثة ثم قال :

ـ ألا من كان يطلب الحجاج بمظلمة فليقم .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ مـه .

فقال ابن مسعود :

ـ لا والله ما من مه .

ثم قال :

يا أهل العراق : جمع الله لكم خير الدنيا والآخرة فإياكم والشقاق والفتنة، إنى قد تركت ورائى خيلا من حديد وقوما لهم دين وليست لهم دنيا ، فإياكم أن تجمعوا دنياكم إلى دينهم .

ثم انصرف عبد الرحمن بن مسعود إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأخبره **بسوء سيرة الحجاج بن يوسف الثقفى وظلمه وعذابه الناس .**

فبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .

إن ابن مسعود امرؤ ظنين على ، قد بلغنى أنه أساء على الثناء ، وإن من شيعته ابن الزبير لن تحبنى أبدا ، وهو من شرارها وفجارها ، وليس مثله قرب ولا صدق .

والسلام .

فكتب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج :

أما بعد :

فقد بلغنى كتابك فى ابن مسعود ، **وليس مثله أتهم ، ولا أظنُّ به ظنّ السوء .**

*** الحجاج بن يوسف وأنس بن مالك :**

قتل مع عبد الله بن الجارود عبد الله بن أنس بن مالك الأنصارى ، فقال الحجاج:

ـ ألا أرى أنَسًا يعين على .

فلما دخل طاغية ثقيف البصرة أخذ مال أنس بن مالك ، فأقبل خادم سيد الأولين والآخرين ﷺ .

فلما رآه الحجاج قال له :

ـ لا مرحبا ولا أهلاً يا ابن الخبيثة ـ كانت أم سليم بنت ملحان من الصحابيات اللاتى خرجن مع خاتم النبيين ﷺ فى غزواته ـ شيخ ضلالة جوال فى الفتن ، مرة مع أبى تراب ـ يعنى على بن أبى طالب الذى سماه رسول الله ﷺ بهذا الاسم هو وعمار بن ياسر ـ ومرة مع ابن الزبير ، ومرة مع ابن الجارود : أما والله لأجردنك جرد القضيب، ولأعصبنك عصب السلمة ، ولأقلعنك قلع الصيغة .

فتساءل خادم المبعوث رحمة للعالمين ﷺ :

ـ بمن يعنى الأمير ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ إياك أعنى ، أصم الله صداك ـ سمعك ـ .

فرجع خادم المبعوث للناس كافة ﷺ وكتب كتابا إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يشكو فيه الحجاج بن يوسف فقال :

لو أن رجلا خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم ، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ، ولعرفوا له ذلك ، ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه أو تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا.

وإنى خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، ورأيته وأكلت معه ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضر بى وفعل وفعل .

فلما قرأ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كتاب خادم خاتم النبيين ﷺ بكى، وبلغ به الغضب ما شاء الله ، فكتب إلى الحجاج بن يوسف :

أما بعد :

يا ابن أم الحجاج : فإنك عبد طمست بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك ، يا ابن المستفرمة ـ المستعربة ـ بعجم الزبيب لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب ، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت فى مخرجك من بطن أمك .

أما تذكر حال آبائك فى الطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بأيديهم فى أوديتهم ومياههم ؟

أنسيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة فى المروة والخلق ؟

وقد بلغ أمير المؤمنين الذى كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وأقداما .

وأظنك أردت أن تُسْبر ما عند أمير المؤمنين فى أمره فتعلم إنكاره ذلك وأغضاءه عنك، فإن سوغك ـ ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق ـ ما كان منك مضيت عليه قدما ، فعليك لعنة الله من عند أخفش العينين ـ المخفش : صغر العين وضعف فى البصر ، وقد يكون الخفش علة وهو الذى يبصر الشىء بالليل ولا يبصره بالنهار ـ أصك الرجلين ممسوح الجاعرتين .

ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب أكثر فى الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرسل من يسحبك ظهرا لبطن حتى يأتى بك أنسا فيحكم فيك ، فأكرم أنسا وأهل بيته وأعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ ، ولا تقصرون فى شىء من حوائجه ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك ، وألقه فى منزله متنصلا ـ تنصل تنصل فلان من ذنبه : تبرأ ـ إليه .

وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله .

والسلام.

وبعث أمير المؤمنين بالكتاب مع إسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم ، فأتى إسماعيل أنس بن مالك بكتاب أمير المؤمنين إليه فقرأه .

ثم أتى الحجاج بالكتاب . . فجعل يقرأه ووجهه يتغير ويتمعر وجبينه يرشح عرقا وهو يقول :

ـ يغفر الله لأمير المؤمنين ، فما كنت أظنه يبلغ منى هذا كله.

ثم قال الحجاج لإسماعيل بن عبد الله :

ـ انطلق بنا إلى أنس .

قال إسماعيل بن عبد الله :

ـ بل يأتيك .

فقال الحجاج :

ـ فنعم .

ذهب إسماعيل بن عبد الله إلى أنس بن مالك فأقبلا حتى دخلا على الحجاج فرحب بخادم رسول الله ﷺ وأدناه وقال له :

ـ يا أبا حمزة عجلت يرحمك الله باللائمة والشكية إلى أمير المؤمنين قبل أن تعلم كل الذى لك عندى ، إن الذى فرط منى إليك عن غير نية ولا رضا بما قلت ، لوكنى أردت أن يعلم أهل العراق إذا كان من ابنك ما كان أنى إذا بلغت منك ما بلغت كنت إليهم بالغلظة والعقوبة أسرع.

قال خادم رسول الله ﷺ :

ـ ما شكوت حتى بلغ منى الجهد وحتى زعمت أنا الأشرار وقد سمانا الله الأنصار، وزعمت أنا أهل النفاق ونحن الذين تبوأوا الدار والإيمان ، وسيحكم الله بيننا وبينك فهو أقدر على التغيير لا يشبه الحق عنده الباطل ولا الصدق الكذب ، وزعمت أنك اتخذتنى ذريعة وسلما إلى ساعة أهل العراق باستحلال ما حرم الله منى ، ولم يكن لى عليك قوة فوكلتك إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين فحفظ من حقى ما لم تحفظ ، فوالله لو **أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدم عيسى بن مريم يوما واحد لعرفوا من حقه ما لم تعرف أنت حقى ، وقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، وبعد فإن رأينا خيرا حمدنا الله عليه وأثنينا ، وإن رأينا غير ذلك صبرنا ، والله المستعان.**

ورد الحجاج بن يوسف ما كان أخذ منه من مال.

*** الحجاج بن يوسف والأعرابى :**

خرج الحجاج بن يوسف حاجا فمر بين مكة والمدينة ، فأتى بغذائه فقال لحاجبه :

ـ انظر من يأكل معى .

فذهب الحاجب فإذا أعرابى نائم ، فضربه برجله وقال:

ـ أجب الأمير .

فقام الأعرابى ، فأما دخل على الحجاج قال له :

ـ اغسل يديك ثم تغد معى.

فقال الأعرابى :

ـ إنه دعانى من هو خير منك .

فتساءل الحجاج فى عجب :

ـ ومن ؟

قال الأعرابى :

ـ الله عز وجل دعانى إلى الصوم فأجبته .

فعاد الحجاج بن يوسف يتساءل :

ـ فى هذا الحر الشديد ؟

قال الأعرابى :

ـ نعم صمت ليوم هو أشد حرا منه .

قال الحجاج :

ـ فأفطر وصم غدا .

قال الأعرابى :

ـ إن ضمنت لى البقاء لغد .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ ليس ذلك لى .

قال الأعرابى :

ـ فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ إن طعامنا طعام طيب .

قال الأعرابى :

ـ لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، إنما طيبته العافية .

*** الحجاج بن يوسف يذكر القبر :**

وقف الحجاج بن يوسف يوما فخطب وذكر القبر فما زال يقول :

إنه بيت الوحدة ، وبيت الغربة .

حتى بكى وأبكى من حوله ، ثم قال :

سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول :

خطبنا عثمان بن عفان فقال فى خطبته :

ما نظر رسول الله ﷺ إلى قبر أو ذكره إلا بكى .

*** حديث الحجاج لمالك بن دينار :**

دخل مالك بن دينار يوما على الحجاج بن يوسف فقال له :

ـ يا أبا يحيى : ألا أحدثك بحديث حسن عن رسول الله ﷺ ؟

قال مالك بن دينار :

ـ بلى .

قال الحجاج بن يوسف :

حدثنى أبو بردة عن أبى موسى قال :

قال رسول الله ﷺ :

ـ من كانت له إلى الله حاجة فليدع بها فى دبر كل صلاة مفروضة (رواه ابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى) .

*** الحجاج بن يوسف والقرآن :**

كان الحجاج بن يوسف يجمع العلماء والقراء والحفاظ والكتاب بين الحين والحين ويسأل ويناقش ويجادل .

ذات يوم سألهم :

ـ أخبرونى عن القرآن كله ، كم من حرف هو ؟

فقالوا :

ـ ثلاثمائة وأربعون ألفا وسبعمائة وأربعون حرفا .

فقال الحجاج :

ـ فأخبرونى عن نصفه .

قالوا :

ـ عند الفاء من قوله تعالى (**وليتلطف**) [سورة الكهف الآية : ١١٩].

وسأل الحجاج عن قوله تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة القيامة الآية : ٢٩] .

قال عامر الشعبى :

التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب .

وقال الحسن البصرى :

هما ساقا الإنسان إذا التفتا فى الكفن .

ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه ، ولقد كان عليهما جوالاً .

فقال الحجاج بن يوسف :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ سورة المزمل الآية : ١٢ .

قال الحسن البصرى :

الأنكال : القيود ـ مفرد : نكل .

وقال عامر الشعبى :

ـ أترون أن الله تعالى جعل الأنكال فى أرجل أهل النار خشية أن يهربوا ؟ لا والله ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا أسفلت بهم.

الأنكال : الأغلال .

قال الحجاج :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [سورة الجاثية الآية : ٢٣] .

قال الحسن البصرى :

ذاك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئا إلا ركبه.

وقال سعيد بن جبير :

كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر .

وقال عامر الشعبى :

- **إنما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه فى النار .**

قال الحجاج :

﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [سورة الصافات الآية : ٤٦ - ٤٧] .

قال الشعبى :

خمر الجنة لا تغتال عقولهم فتذهب بها ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع .

ومنها قول الشاعر :

وما زالت الكأس تغتالنا   وتذهب بالأول الأول

قال الحسن البصرى :

- خمر الجنة أشد بياضا من اللبن .

فقال الحجاج :

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [سورة لصافات الآية : ٤٩] .

قال الحسن البصرى : الحور العين شبههن ببيض النعام ، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة وهو أحسن ألوان النساء .

فقال الحجاج :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء الآية : ١٠٥] .

قال سعيد بن جبير :

- الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن .

من بعد الذكر : الذي فى السماء .

أن الأرض : أرض الجنة .

قال عامر الشعبى :

ـ الزبور : زبور داود ، الذكر : توراة موسى عليه السلام .

قال الحجاج :

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [سورة المؤمنون الآية : ١٠٠] .

قال سعيد بن جبير :

البرزخ : الحاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا أى ما بين الدنيا والآخرة .

وقال رجل للشعبى :

ـ رحم الله فلانا قد صار من أهل الآخرة .

فقال عامر الشعبى :

ـ لم يصر من أهل الآخرة وأنما صار من أهل البرزخ ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة.

قال الحجاج :

﴿ وأدبار السجود ﴾ [سورة ق الآية : ٤٠] .

قال : عامر الشعبى :

ـ **إدبار السجود** : الركعتان بعد المغرب ، **وإدبار النجوم** : الركعتان قبل الفجر فنظر الحجاج نحو الحسن البصرى فقال :

ـ يقول عبد الله بن عباس : قال رسول الله ﷺ :« **يا ابن عباس : ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب أدبار السجود** » [رواه الماوردى] .

قال الحجاج بن يوسف :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ [سورة النجم الآية : ٣٢] .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

اللمم : وهى الصغائر التى لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه .

وقال الشعبى :

ـ اللمم كل ما دون الزنى .

قال الحسن البصرى :

ـ اللمم هو الذى يأتى الذنب ثم لا يعاوده .

فقال الحجاج بن يوسف :

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الواقعة الآية : ٦] .

قال الحسن البصرى :

ـ أى يقيمون على الشرك .

وقال عامر الشعبى :

ـ هو اليمين الغموس وهى من الكبائر .

يقال حنث فى يمينه أى لم يبرها ورجع فيها .

فتبسم الحجاج وقال :

﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ [سورة ق الآية : ٣٢] .

قال الشعبى :

هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها .

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

أواب أى رجاع إلى الله عن المعاصى ، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع .

وقال سعيد بن جبير :

ـ هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه .

قال الحجاج بن يوسف :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء الآية:٧] .

قال عامر الشعبى :

ـ الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النار فهو لئيم وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

كريم : حسن شريف ، وأصل الكرم فى اللغة الشرف والفضل .

قال الحجاج بن يوسف :

ما تقولون فى قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ [سورة التغابن الآية : ١٧] .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعل لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتفتنكم وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام.

قال عامر الشعبى :

نزلت فى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوا الهجرة بفتنة أموالكم وأولادكم .

قال الحجاج :

ـ ما يدل على صحة هذا ؟

قال الحسن البصرى :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن الآية : ١٤] عقب قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [سورة التغابن الآية : ١٤] .

وقال سعيد بن جبير :

نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك .

هز الحجاج بن يوسف رأسه معلنا عن عدم رضاه وعدم إقناعه بهذا التفسير وقال:
لقد تغلغلت فى هذه الآية حين تلوتها وقصرتها على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان

يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحل لى دمه .

فتبادل الشعبى وابن أبى ليلى والحسن وابن جبير النظرات وكأنهم يقولون :

ـ لقد صار الحجاج مفسرا للقرآن بما يرى .

فقال سعيد بن جبير :

ـ يا أبا محمد : نزلت هذه الآية للنبى ﷺ أولا ثم لأولى الأمر من بعده .

فقال الحجاج :

ـ وما دليلك ؟

قال الحسن البصرى :

ـ قوله تعالى : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [سورة النساء الآية : ٥٩] .

قال الحجاج بن يوسف :

﴿ **وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا** ﴾ سورة المرسلات الآية : ١] .

قال الحسن البصرى :

ـ الريح .

فنظر الحجاج نحو عامر الشعبى فقال :

ـ هى الملائكة .

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

ـ هى الرسل ترسل بالعرف .

قال الحجاج :

ـ عرفا : يتبع بعضها بعضا .

ثم تساءل الحجاج :

﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** ﴾ [سورة

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [سورة السجدة الآية : ١٠] .

قال الشعبى :

قال المشركون بالله المكذبون بالبعث : إذا هلكت أجسادنا فى الأرض وكنا عظاما ورفاتا أئنا المبعوثون خلقا جديدا ؟

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

فيها لغتان : ضلَلنا وضلِلنا بفتح اللام وكسرها ، والقراءة على فتحها وهي الجوداء وبها نقرأ وقال الحسن :

﴿ أئذا صللنا ﴾ بالصاد ، بمعنى أنتنا ، من قولهم : صل اللحم : إذا أنتن ، فهم يكفرون بالبعث .

قال الحجاج :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ﴾ [سورة القصص الآية : ٧١] .

قال الحسن :

ـ يقول تعالى جل ثناؤه : قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله : أيها القوم أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل دائما لا نهار إلى يوم القيامة يعقبه .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

والعرب تقول لكل ما كان متصلا لا ينقطع من رخاء أو بلاء ونعمة هو سرمدٌ .

وقال الشعبى :

سرْمدًا : دائما لا ينقطع .

قال الحجاج بن يوسف :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [سورة القصص الآية : ١٨] .

قال سعيد بن جبير :

موسى يتلفت من الخوف .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدث به الناس .

وقال عامر الشعبى :

يترقب الطلب .

قال الحسن البصرى :

- خرج موسى عليه السلام يستخير الخير ولم يكن أحد علم بقتل القبطى إلا الإسرائيلى .

قال الحجاج بن يوسف :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سورة لقمان الآية : ٣١] .

قال الشعبى :

الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله.

قال الحجاج :

- أين ذلك فى القرآن .

قال الشعبى :

- ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [سورة الذاريات الآية : ٢٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام :

- الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر - الإيمان نصفان فنصف فى الصبر ونصف فى الشكر - رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس] .

قال سعيد بن جبير :

أراد لكل مؤمن بهذه الصفة لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان.

قال الحجاج بن يوسف :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١٩٩].

قال سعيد بن جبير :

هذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات ، فقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ دخل فيه صلة القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل فى قوله ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ صلة الأرحام ، وتقوى الله فى الحلال والحرام ، وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض علي التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة .

قال عامر الشعبى :

جاء جبريل عليه السلام النبى ﷺ فقال :

(إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك).

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى :

قال أبو القاسم ﷺ :

بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وقال الحسن البصرى :

ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

فقال الحجاج :

﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١٣١] .

قال الحسن البصرى :

ـ ما قدر لهم .

*** الحجاج وعبد الله بن مسعود .**

وقف الحجاج على المنبر ذات يوم وقال :

اتقوا الله ما استطعتم ، ليس فيها مثنوية ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير

اتقوا الله ما استطعتم ، ليس فيها مثنوية ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك .

والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم .

والله لو أخذت ربيعة بمضر ـ حاربت وقاتلت قبيلة ربيعة قبيلة مضر ـ لكان ذلك لى من الله حلالاً .

وما عذيرى من عبد هذيل ـ يعنى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود الذى جمع القرآن وجعله فى مصحف ولكن ذا النورين رفضه ـ يزعم أن قرآنه من عند الله ، والله ما هى إلا رجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه ﷺ .

وقيل :

قال الحجاج :

والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لى دماؤكم ، ولا أجد أحدا يقرأ على قراءة ابن أم عبد ـ يعنى عبد الله بن مسعود ـ إلا ضربت عنقه ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير .

والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه ، عبد الله بن مسعود رأس المنافقين ، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه.

يقول أبو بكر بن عياش بعد أن سمع قول الحجاج :

هذا من جرأة الحجاج ـ قبحه الله ـ وإقدامه علي الكلام السيئ والدماء الحرام ، وإنما نقم على قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ لكونه خالف القراءة على المصحف الإمام الذى جمع الناس عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان .

يقول إبراهيم بن علقمة :

جاء رجل ـ من أهل الكوفة ـ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال:

ـ إنى جئتك من عند رجل يملى المصاحف عن ظهر قلب .

ففزع عمر وغضب وقال :

ـ ويحك ، انظر ما تقول .

قال الرجل :

ـ ما جئتك إلا بالحق .

فتساءل الفاروق :

ـ من هو ؟

قال الرجل :

ـ عبد الله بن مسعود .

قال أمير المؤمنين عمر :

ـ ما أعلم أحدا أحق بذلك منه وسأحدثك عن ذلك :

إنا سهرنا ليلة فى بيت أبى بكر فى بعض ما يكون من حاجة النبى ﷺ ، ثم خرجنا ورسول الله ﷺ يمشى بينى وبين أبى بكر ، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ ـ القرآن ـ فقام النبى ﷺ يستمع إليه .

فقلت :

ـ يا رسول الله أعتمت .

فغمزنى بيده :

ـ يعنى أسكت .

فقرأ وركع وسجد وجاء يدعو ويستغفر .

فقال النبى ﷺ :

ـ «من سره أن يقرأ القرآن رطبا ـ غضا ـ كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» [رواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن عبد الله بن عمرو] .

وقال عليه الصلاة والسلام :

ـ « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » [رواه ابن السنى فى عمل يوم وليلة عن عمر] .

فقلت أنا وصاحبى - أبو بكر - :

- **إنه عبد الله بن مسعود** [رواه أبو نعيم] .

وروى الطبرانى عن عبد الله بن مسعود :

لقد تلقيت من رسول الله ﷺ سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت - وله ذؤابة يلعب مع الغلمان.

وقال عبد الرحمن بن زيد للصحابي الجليل حذيفة بن اليمان :

- أخبرنا برجل قريب الهدي والسمت من رسول الله ﷺ حتى نلزمه .

فقال كاتم سر رسول الله ﷺ - فى المنافقين - :

- **ما أعلم أحد أقرب هديا وسمتا من رسول الله ﷺ حتى يواريه جدار بيته من ابن أم عبد** [رواه أبو داود الطيالسى] .

وقال على بن أبى طالب :

قال رسول الله ﷺ : «**تمسكوا بعهد عبد الله بن مسعود** » [رواه الترمذى].

*** الحجاج يتجرأ علي نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام .**

يقول مسلم بن إبراهيم : سمعت الحجاج على المنبر يقول :

﴿ **وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** ﴾ [سورة ص الآية : ٣٥] .

فقال طاغية ثقيف :

والله إن كان سليمان لحسودا .

وهذه جرأة عظيمة تقضى به إلى الكفر - قبحه الله وأخزاه وأبعده وأقصاه - .

*** هذا جزاؤك :**

مر سفاح ثقيف ذات ليلة بمكان فإذا هو برجل يبيع لبنا وبين يديه - أمامه - إناء فيه لبن ، وكان يحدث نفسه ويقول :

سأبيع هذا اللبن بكذا وبكذا ، ثم أبيع كذا وكذا فيصير لى من الدراهم كذا ومن الدنانير كذا ، ويحسن حالى، فأخطب بنت الحجاج وأتزوجها ، فتلد لى غلامًا ،

فرفس الإناء فانكسر وتبدد اللبن .

وقرع شيطان ثقيف الباب ، فلما فتحه الرجل أخذه سفاح ثقيف وجلده خمسين سوطًا ، وقال له :

ـ لو رفست ابنتى هكذا لأفجعتنى فيها ، قبحك الله تعالى ، وهذا جزاؤ حلم حالم، وأمنية كاذبة ، وتخيل مطلق واسع، ووهم باطل ، وسقم فى الفكر ، وجنون فى المقل ، وسراب خادع حسبه الرجل ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ، ووجد عنده من لم يرع للمصاهرة المزعومة حقها ، وجد حماه المرتقب ، ففعل به ما ان يفخر به، كان يقول :

ـ إنى أحب ارتكاب أمور لا يقدم عليها غيرى، ولا سبق إليها سواى.

❊ **النعمة :**

سأل الحجاج بن يوسف الجوهرى :

ـ ما النعمة ؟

قال الجوهرى :

ـ الأمن ، فإنى رأيت الخائف لا ينتفع بعيش .

قال شيطان ثقيف :

ـ زدنى .

قال الجوهرى :

ـ الشباب فإنى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش .

فقال سفاح ثقيف :

ـ زدنى .

قال الجوهرى :

ـ الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا ينفع بعيش .

قال منافق ثقيف :

ـ زدنى .

قال الجوهرى :

ـ لا أجد مزيدا .

*** صف عيب نفسك يا حجاج :**

ذات يوم قال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان للحجاج بن يوسف :

ـ ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف عيب نفسك.

فقال الحجاج :

ـ اعفنى يا أمير المؤمنين .

فأبى عبد الملك بن مروان .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أنا لجوج حقود حسود .

فقال عبد الملك بن مروان :

ـ ما فى الشيطان شر مما ذكرت .

وقيل :

قال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان للحجاج :

ـ إذا بينك وبين إبليس نسب .

*** أنا كافر .**

قال مالك بين دينار :

بينما الحجاج يخطبنا يوما قال :

ـ الحجاج كافر .

قلنا :

ـ ماله ؟ أى شىء يريد ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ أنا كافر بيوم الأربعاء والبغلة والشهباء .

وقيل :

خطب الحجاج يوما فأقبل عن يمينه فقال :

ـ الحجاج كافر .

ثم أطرق فقال :

ـ ألا إن الحجاج كافر .

ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال :

ـ ألا إن الحجاج كافر .

فعل ذلك مرارا ، ثم قال :

ـ كافر يا أهل العراق باللات والعزى .

*** تمرد صالح بن مسرح :**

كان صالح بن مسرح الشيبى رجلاً ناسكاً صاحب عبادة ، وكان له أصحاب يقرأ بهم القرآن والفقه ويقص عليهم ، فدعاهم إلى الخروج وإنكار الظلم وجهاد المخالفين لهم ، فأجابوه وحثهم عليه .

فراسل أصحابه بذلك وتلاقوا به .

وبينما هم في ذلك إذ قدم عليهم كتاب شبيب يقول فيه :

إنك كنت تريد الخروج فإن كان ذلك من شأنك اليوم أعلمنى فإن الآجال غادية ورائحة ولا آمن أن تخترمنى المنية ولم أجاهد الظالمين .

فكتب إليه صالح بن مسرح :

إنه لم يمنعنى من الخروج إلا انتظارك ، فأقبل إلينا ، فإنك من لا يستغنى عن رأيه

ولا تقضى دونه الأمور .

فلما قرأ شبيب كتاب صالح بن مسرح التميمى دعا نفرا من أصحابه منهم : أخوه مصاد بن يزيد بن نعيم الشيبانى ، والمحلل بن وائل اليشكرى ، وغيرهما ، وخرج بهم حتي قدم على صالح بن مسرح ، فلما لقيه قال :

ـ أخرج بنا رحمك الله ، فوالله ما تزداد السنة إلا دروسا ولا يزداد المجرمون إلا طغيانا .

وخرج صالح بن مسرح فى مائة وعشرين رجلا ، فلما بلغ محمد بن مروان أمير الجزيرة مخرجهم أرسل عدى بن عدى الكندي إليهم فى ألف فارس .

وجعل صالح بن مسرح شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى فى ميمنته ، وسويد بن سليم في ميسرته ووقف فى القلب فأتاهم وهم علي غير تعبية وبعضهم يجول فى بعض فحمل عليهم شبيب وسويد فانهزموا .

ودخل أصحاب عدى بن عدى على محمد بن مروان فغضب على عدى .

ودعا محمد بن مروان خالد بن جزء فبعثه فى ألف وخمسمائة ، ودعا الحارث بن جعرنة العامرى فبعثه فى ألف وخمسمائة وقال لهما :

ـ أخرجا إلى هذه المارقة وأغذا السير فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه .

فخرجا متساندين يسألان عن صالح بن مسرح فقيل لهما :

ـ إنه نحو آمد .

فقصداه .

فوجه صالح شبيب بن يزيد فى شطر من أصحابه إلى الحارث بن جعرنة ، وتوجه هو نحو خالد بن جزء.

وكثرت الجراح فى الفريقين ، وقتل من أصحاب صالح بن مسرح نحو ثلاثين رجلا، ومن أصحاب محمد بن مروان أكثر من سبعين .

ولما بلغ ذلك الحجاج بن يوسف سرح إليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف من أهل الكوفة فانهزم سويد بن سليم ، وثبت صالح بن مسرح حتى قُتل ، وقاتل شبيب

ابن يزيد حتى صرع عن فرسه فدخل حصنا هو وسبعون رجلا ، فأحاط بهم الحارث بن جعرنة وأحرق عليهم الباب وقال :

ـ إنهم لا يقدرون على الخروج منه ونصبهم غدا فنقتلهم .

وانصرف الحارث إلى عسكره .

*** بيعة شبيب بن يزيد الخارجى .**

سأل شبيب أصحابه :

ـ ما تنظرون ؟ فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه لهلاككم .

قالوا :

ـ مرنا بأمرك .

قال شبيب :

ـ بايعونى أو من شئتم من أصحابكم واخرجوا بنا نشد عليهم فى عسكرهم فإنهم آمنون .

فبايعوا شبيبا .

وأتوا باللبود فلبسوها وجعلوها علي جمر باب الحصن وخرجوا .

ولم يشعر الحارث بن عميرة إلا وشبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى وأصحابه يضاربونهم بالسيوف فى جوف العسكر ، فصرع الحارث بن عميرة ، فاحتمله أصحابه وانهزموا نحو المدائن وحوى شبيب عسكرهم ، وكان ذلك الجيش أول جيش هزمه شبيب.

فكتب الحجاج بن يوسف إلى سفيان بن أبى العالية الخثعمى وكان معه ألف فارس فانطلق سفيان فى طلب شبيب ، ولحقه بخانقين ، وارتفع شبيب عنهم حتى كأنه يكره قتالهم ، وأكمن أخاه مصاد بن يزيد بن نعيم في هزم ـ الهزم : ما اطمأن من الأرض ـ من الأرض فى خمسين رجلاً ومضى سفيان فى سفح الجبل فقالوا :

ـ هرب عدو الله ، فاتبعوه .

فقال لهم عدى بن عميرة الشيبانى :

ـ لا تعجلوا حتى نبصر الأرض لئلا يكون قد كمن فيها كمينا .

فلم يلتفتوا .

فلما جازوا الكمين رجع عليهم شبيب بن يزيد ، وخرج أخوه مصاد بن يزيد فى الكمين . . فانهزم أصحاب سفيان الخثعمى ، وفر سفيان إلى بابل مهروذ ، وكتب إلى الحجاج بن يوسف بالخبر ، فكتب الحجاج إلى سورة بن الحر وأمره أن ينتخب من المدائن خمسمائة فارس ويسير بهم إلى شبيب بن يزيد .

فلما رآهم شبيب بن يزيد حمل عليهم حملة رجل واحد فهزم الفرسان وأهل القوة .

ورجع شبيب إلى المدائن فمر على كلوازى فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج بن يوسف فأخذها ومضى إلى تكريت .

وأرجف الناس بالمدائن بوصول شبيب بن يزيد إليهم ، فهرب من بها من الجند نحو الكوفة .

ولما قدم الفَلُّ ـ ما بقى من جند سورة بن الحر ـ سير الحجاج بن يوسف الجزل بن سعيد ـ اسمه عثمان ـ نحو شبيب الخارجى ، وأوصاه بالاحتياط وترك العجلة فقال عثمان :

ـ لما تبعت معى من الجند المهزوم أحدا فإنهم قد دخلهم الرعب ولا ينتفع بهم المسلمون .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ أحسنت .

وخرج الجزل بن سعيد الكندى فى أربعة آلاف .

والتقى الجمعان فهُزم أصحاب الجزل الذى حمل بين القتلى جريحا .

وقدم المنهزمون الكوفة ، وكتب الجزل بن سعيد إلى الحجاج بالخبر .

وسار شبيب بن يزيد نحو المدائن ثم سار نحو الكوفة ، فلما بلغ الحجاج بن يوسف مكانه بعث سويد بن عبد الرحمن السعدى فى ألفى رجل وقال له :

ـ ألق شبيبا فإن استطرد لك ـ فر من بين يديك ـ فلا تتبعه .

ولكن شبيب بن يزيد سار إلى الكوفة فدخلها وضرب باب القصر بعمود ، فأثر فيه

أثرا عظيما ثم وقف عند المصطبة وقال :

عهدٌ دعيٌّ من ثمود أصله   لا بل يُقال أبو أبيهم يقدم

يعنى الحجاج بن يوسف .

وقيل :

إن ثقيفا بقايا ثمود .

وقيل :

هم من نسل يقدم الإيادى .

واقتحم أصحاب شبيب المسجد الأعظم وكان لا يزال فيه قوم يصلون فقتلوا منهم أناسا ومروا بمسجد ذهل فرأوا فيه ذهل بن الحارث وكان يطيل الصلاة فيه فقتلوه ثم خرجوا من الكوفة فاستقبلهم النضر بن قعقاع بن ثور الذهلى فقال لشبيب :

ـ السلام عليك أيها الأمير .

فقال له سويد بن سليم :

ـ أمير المؤمنين ويلك .

فقال النضر بن قعقاع :

ـ أمير المؤمنين .

فقال له شبيب :

ـ يانضر : لا حكم إلا لله .

وأراد أن يلعنه ، فقال :

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فشد أصحاب شبيب على النضر بن قعقاع فقتلوه .

وكان النضر بن قعقاع قد أقبل مع الحجاج بن يوسف من البصرة فتخلف عنه .

ووجه الحجاج بن يوسف ألف وثمانمائة فارس مع زحر بن قيس وقال له :

ـ اتبع شبيبا حتى تواقعه أين أدركته ، إلا أن يكون ذاهبا فاتركه ما لم يعطف عليك أو يقيم .

فخرج زحر بن قيس فلقى شبيب بن يزيد على مقربة من السيلحين . . وهزم شبيب أصحاب زحر فرجع إلى الحجاج وبوجهه وبرأسه بضع عشرة جراحة ، فأجلسه الحجاج على سريره وقال لمن حوله :

ـ من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين الناس وهو شهيد فلينظر إلى هذا .

ولما **استفحل أمر الخوارج** بعث الحجاج بن يوسف زائدة بن قدامة إلى الأمراء فى بروذبار على أربعة وعشرين فرسخا من الكوفة .

وقيل :

لماهزم أصحاب زحر قال أصحاب شبيب بن يزيد الخارجى :

ـ لقد هزمنا لهم جندا ، انصرف بنا الآن وافرين .

فقال لهم شبيب :

ـ هذه الهزيمة قد أرغبت هؤلاء الأمراء والجنود الذين فى طلبكم ، فاقصدوا بنا نحوهم فوالله لئن قاتلناهم فما دون الحجاج مانع ونأخذ الكوفة إن شاء الله تعالى .

قالوا :

ـ نحن لرأيك تبع .

والتقى جيش الأمراء وأصحاب شبيب الخارجى فقتل الخوارج زائدة بن قدامة ومحمد بن موسى بن طلحة .

ودعا الحجاج بن يوسف **عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث** وأمره أن ينتخب ستة آلاف فارس ويسير بهم فى طلب شبيب بن يزيد الخارجى أين كان .

فسار ابن الأشعث نحو شبيب بن يزيد ، وكتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأشعث وأصحابه يتهددهم بالقتل والتنكيل إن انهزموا .

فلما لحق عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بشبيب بن يزيد أرسل إليه يقول :

ـ إن هذه الأيام عيد لنا ولكم ـ يعنى عيد النحر ـ فهل لك فى الموادعة حتى تمضى هذه الأيام ؟

فأجابه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى ذلك .

وكان يحب المطاولة .

فكتب عثمان بن قطن إلى الحجاج بن يوسف :

إن عبد الرحمن قد حفر جوخى كلها خندقا واحدا وكسر خراجها وخلى شبيبا يأكل أهلها والسلام .

فكتب الحجاج إليه يأمره بالمسير إلى الجيش وجعله أميرهم وعزل عنهم عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث .

والتقى جيش الحجاج وأصحاب شبيب فما شعر عثمان بن قطن ومن معه إلا والرماح فى أكتافهم تكبهم لوجوههم وقتل عثمان بن قطن وفر عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث إلى الكوفة واختفى من الحجاج حتى أخذ له الأمان منه .

*** ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية :**

فى سنة ست وسبعين ضرب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الدنانير والدراهم **فكان أول من أحدث ضربها فى الإسلام ، فانتفع الناس بذلك .**

ثم إن الحجاج بن يوسف ضرب الدراهم ونقش فيها ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ سورة الإخلاص الآية :١ .

وقيل :

إن مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة أيام أخيه عبد الله بن الزبير ، ثم كسرت بعد ذلك أيام عبد الملك .

*** محاربة شبيب بن يزيد الخارجى :**

لما هزم شبيب بن يزيد الجيش الذى كان وجهه الحجاج بن يوسف مع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ، وقتل عثمان بن قطن ، بعث الحجاج زهرة بن حوية على رأس جيش من الكوفة ، وعتاب بن ورقاء على رأس جيش من أهل الشام فلقيهم شبيب ابن يزيد الخارجى وهزمهم وقتل عتاب بن ورقاء ، وزهرة بن حوية .

ولما بلغ الحجاج بن يوسف الخبر قام على المنبر فقال :

يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، أخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، انزلوا بالحيرة مع اليهود والنصارى ، ولا يقاتل معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب .

ووجه الحجاج الحارث بن معاوية الثقفى فى ناس من الشرط وكانوا نحو ألف فلقيهم شبيب بن يزيد وقتل الحارث بن معاوية فانهزم من كان معه .

فلما كان اليوم الثانى أخرج الحجاج مواليه فأخذوا بأفواه السكك ، وجاء شبيب فنزل السبخة وابتنى بها مسجدا.

فلما كان اليوم الثالث أخرج الحجاج أبا الورد مولاه عليه تجفاف ومعه غلمان له وقالوا:

ـ هذا الحجاج .

فحمل عليه شبيب فقتله وقال:

ـ إن كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه .

ثم أخرج الحجاج غلامه طهمان فى مثل تلك العدة والحالة ، فقتله شبيب الخارجى وقال:

ـ إن كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه .

وخرج الحجاج بن يوسف من القصر وطلب بغلاً يركبه إلى السبخة ، فركبه وخرج معه أهل الشام ثم نزل ودعا بكرسى فقعد عليه ثم نادى :

ـ يا أهل الشام : أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين فلا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس ـ مفرد : رجس ـ حقكم ، فغضوا الأبصار واجثوا على الركب واستقبلوهم بأطراف الأسنة .

ففعلوا وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء .

وأقبل شبيب فى ثلاثة كراديس .

قال شبيب لسويد بن سليم :

ـ احمل عليهم فى خيلك .

فحمل على أهل الشام ، فثبتوا له ووثبوا فى وجهه بأطراف الرماح فطعنوه حتى انصرف هو وأصحابه .

وصاح الحجاج بن يوسف :

ـ هكذا فافعلوا .

وأمر بكرسيه فقُدم .

وأمر شبيب الخارجى المحلل بن وائل فحمل على أهل الشام ، ففعلوا به كذلك فناداهم الحجاج :

ـ هكذا فافعلوا .

وأمر بكرسيه فقُدم .

وحمل شبيب بن يزيد عليهم فى كتيبته ، فثبتوا له وصنعوا به كذلك ، فقاتلهم طويلا ، فقاتله أهل الشام وطاعنوه حتى ألحقوه بأصحابه .

وجاء الحجاج بن يوسف حتى انتهى إلى مسجد شبيب ثم قال :

ـ يا أهل الشام : هذا أول الفتح .

وصعد المسجد ومعه جماعة معهم النبل ليرموهم إن دنوا منه .

واقتتلوا عامة النهار أشد قتال رآه الناس حتى أقر كل واحد من الفريقين لصاحبه قال خالد بن عتاب بن ورقاء للحجاج :

ـ ائذن لى فى قتالهم فإنى موتور .

فأذن الحجاج له .

فخرج خالد بن عتاب ومعه جماعة من أهل الكوفة وقصد عسكر شبيب من ورائهم فقتل مصاد بن يزيد أخا شبيب وقتل امرأته غزالة وحرق فى عسكره .

ولما أتى الخبر الحجاج كبر هو وأصحابه .

أما شبيب بن يزيد فركب هو وأصحابه وفروا .

فقال الحجاج بن يوسف لأهل الشام :

ـ احملوا عليهم فإنهم قد أتاهم ما أرعبهم .

فشدوا عليهم فهزموهم .

ودخل الحجاج بن يوسف الكوفة فصعد المنبر ثم قال :

والله ما قوتل شبيب قبلها ، ولَّى والله هاربا وترك امرأته يكسر فى استها ـ دبرها ـ القصب .

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن الحكمى فبعثه فى ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام فى أثر شبيب الخارجى فلحق به وهزمه ففر إلى كرمان ليستريح هو ومن معه .

وأمر الحجاج بن يوسف سفيان بن الأبرد وأصحابه بمطاردة شبيب بن يزيد فمشوا إليه فأدركوه وهو على الجسر فقال أصحاب سفيان :

ـ لقد أوجعنا قلوبهم وقتلنا من عشائرهم رجالا .

وقال أصحاب شبيب بعضهم لبعض :

ـ هل لكم أن نقطع بهم الجسر فندرك ثأرنا ؟

فقطعوا الجسر ، فمالت بشبيب بن يزيد السفن ، ونفر به الفرس فوقع فى الماء ولما هم أصحاب الشام يريدون الإنصراف أتاهم صاحب الجسر فقال لسفيان بن الأبرد :

إن رجلا منهم وقع في الماء فنادوا بينهم :

ـ غرق أمير المؤمنين .

فكبر سفيان بن الأبرد وكبر أصحابه فقد علموا أن شبيب بن يزيد الخرجى قد غرق.

*** الحجاج وامرأة من الخوارج :**

أتى الحجاج بن يوسف بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه ، ولا ترد عليه كلاما ، فقال لها بعض الشرط :

ـ يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟

قالت :

ـ إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه .

فأمر بها الحجاج بن يوسف فقتلت .

*** أمير المؤمنين يعتب على الحجاج فى إسرافه فى صرف المال وسفك الدماء .**

كتب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف يعتب عليه فى إسرافه فى صرف الأموال وسفك الدماء فقال :

إنما المال مال الله ، ونحن خزانه ، وسيان منع حق أو إعطاء باطل .

وكتب أسفل الكتاب هذه الأبيات :

إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها ... وتطلب رضائى فى الذى أنا طالبه
وتخشى الذى يخشاه مثلك هاربا ... إلى الله منه ضيع الدر حالبه
فإن ترى منى غفلة قرشية ... فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن ترى منى وثبة أموية ... فهذا وهذا كله أنا صاحبه
فلا تعد ما يأتيك منى فإن تعد ... تقم فاعلمن يوما عليك نوادبه

فلما قرأ الحجاج بن يوسف كتاب أمير المؤمنين كتب :

أما بعد :

فقد جاءنى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الأموال والدماء ، فوالله ما بالغت فى عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حق أهل الطاعة ، فإن كان ذلك سرفا فليحد لى ـ فليقم لى حدًا أو يقيم أمير المؤمنين على الحد ـ حدا انتهى إليه ولا أتجاوزه وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا لم أطلب رضاك وأتقى ... أذاك فيومى لا توارت كواكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ... فقامت عليه فى الصباح نوادبه
أسالم من سالمت من ذى هوادة ... ومن لا تسالمه فإنى محاربه
فمن يتقى يومى ويرجو إذا غدا ... على ما أرى والدهر جمم عجائبه

وقيل :

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج :

أما بعد :

فإنه بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق فى اليوم ما ينفق أمير المؤمنين فى الجمعة ، وتنفق فى الجمعة ما ينفق أمير المؤمنين فى الشهر ، وتنفق فى الشهر ما ينفق أمير المؤمنين فى السنة ، وهذا مالا قوام معه يا حجاج .

عليك بتقوى الله فى كل حالة وكن لوعيد الله ربك تخشع
ووفر خراج المسلمين وفيأهم وكن لهم حصنا يذود ويمنع

فكتب إليه الحجاج :

أتتنى كتب للخليفة ضمن قراطيس تطوى كى تصان وتطبع
ومعها كتاب فيه ليسن وشدة وذكر وفي الذكرى لذى اللب منفع
وكانت بلادا جئتها ذات فتنة بها كل نيران الحوادث تلمع
فما زلت فيها أعمل الحزم جاهدا فأعطي على حين العطاء وأمنع
فلا تتهمننى أننى لك ناصح ولست مع النصح المبين أضيع

فرد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان عليه كتابه ، وكتب فى حاشيته :

صدقت يا أبا محمد وبررت .

وبالجملة كان الحجاج بن يوسف الثقفى نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم .

*** أمس .. واليوم .. وغد :**

كتب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف يسأله عن أمس واليوم وغد فقال لرسول أمير المؤمنين :

ـ أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده ؟

فقال رسول عبد الملك بن مروان :

ـ نعم .

فكتب الحجاج بن يوسف :

أما أمس : فأجل ، وأما اليوم : فعمل ، وأما غدا : فأمل .

* أطيب الناس عيشًا

قال الحجاج بن يوسف لابن القَرِّيَّة :

ـ ما تقول فى التزويج ؟

قال ابن القرية :

وجدت أسعد الناس فى الدنيا ، وأقرهم عينًا ، وأطيبهم عيشًا ، وأبقاهم سرورا ، وأرخاهم بالا ، وأشبهم شبابًا : من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة ، حسنة لطيفة مطيعة ، إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة ، وإن قتر عليها وجدها قانعة ، وإن غاب عنها كانت له حافظة ، تجد زوجها أبدًا ناعما ، وجارها سالما ، ومملوكها ـ خادمها ـ أمينا ، وصبيها طاهرًا ، قد ستر حلمها جهلها ، وزين دينها عقلها ، فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنيها ، كاللؤلؤة لم تثقب ، والمسكة التى لم تفتق ، قوامة صوامة ، ضاحكة بسامة ، إن أيسرت شكرت ، وإن أعسرت صبرت ، فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه .

وإنما المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يجره فى الأرض جرا ، فبعلها ـ زوجها ـ مشغول ، وجارها متبول ، وصبيها مرذول ، وقطيعها مهزول.

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ ياابن القرية قم الآن فاخطب لى هندًا بنت أسماء ولا تزد عن ثلاث كلمات .

فأتاهم ابن القرية فقال لهم :

ـ جئت من عند من تعلمون ، والأمير يعطيكم ما تسألون ، أفتزوجون الأمير أم تدعون ؟

قالوا :

ـ زوجنا وغنمنا .

فرجع ابن القرية إلى الحجاج بن يوسف وقال له :

ـ أصلح الله صلاح من رضى عمله ، ومد فى الخيرات أجله ، وبلغ به أمله ،

فجمع الله عملك ، وأدام طولك ، وأقر عينك ، ووقاك حينك ، وأعلى كعبك ، وذلل صعبك ، وحسن حالك ، على الرفاء والبنين ، والتيسير والبركة وأسعد السعود، وأيمن الجدود ، وجعلها الله ولودا ودودا ، وجمع بينكما على الخير والبركة .

وتزوجها الحجاج .

ودخل الحجاج على هند بنت أسماء يوما وهى تقول :

وما هند إلا مهرة عربية سلالة أفراس تحللها بغل

فإن نتجت مهرا كريما فبالحرى وإن يك أقراف فما أنجب الفحل

فخرج الحجاج بن يوسف من عندها مغضبا ، ودعا ابن القرية ، ودفع إليه مائة ألف درهم وقال له :

ـ أدخل على هند وطلقها عنى، ولا تزد عن كلمتين ، وادفع إليها المال .

فحمل ابن القرية المال ودخل على هند بنت أسماء فقال لها :

ـ إن الأمير يقول : كنت فبنت ، وهذه المائة ألف صداقك .

قالت هند بنت أسماء :

ـ يا ابن القرية : ما سررت إذ كان ، و جزعت إليه إذ بان ـ فارق ـ ، وهذا المال بشارة لك، لما جئتنا به .

فكان قول هند بنت أسماء أشد على شيطان ثقيف من فراقها .

*** الحجاج والسارق :**

أتى الحجاج بن يوسف بسارق فقال له :

ـ لقد كنت غنيا أن تكسب جناية ، فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل عليك عضوا من أعضائك .

فقال الرجل :

ـ إذا قل ذات اليد سخت النفس بالمتألف .

قال الحجاج :

ـ صدقت ، والله لو كان حسن اعتذار يبطل حدًا لكنت له موضعا .

ثم نادى غلامه وقال:

ـ يا غلام : سيف صارم ، ورجل قاطع .

فقطعت يد السارق .

*** بلاد روتبيل :**

ولى الحجاج بن يوسف عبيد الله بن أبى بكرة سجستان وذلك سنة ثمان وسبعين ، فمكث سنة لم يَغْزُ ، وكان روتبيل مصالحا وكان يؤدى الخراج ، وربما امتنع منه ، فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبى بكرة يأمره بمناجزة روتبيل وأن لا يرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله ـ يأتى بهم أسارى ـ .

فسار عبيد الله فى أهل البصرة والكوفة ، وبقى عبيد الله حتى دخل بلاد روتبيل، فأصاب من الغنائم ما شاء ، وهدم حصونا ، وغلب على أرض من أراضيهم ، وكان روتبيل يترك لهم أرضا بعد أرض حتى أمعنوا فى بلاد الترك ودنوا من مدينتهم وأصبحوا منها على ثمانية عشر فرسخا ، وأخذ المسلمون على الشعاب فسقط فى أيدى المسلمين وظنوا أنهم قد هلكوا .

وصالح روتبيل عبيد الله على سبعمائة ألف درهم ليمكن المسلمين من الخروج من أرضه .

وجهز الحجاج جيشا لُجيًا من أهل البصرة وأهل الكوفة وأنفق فيهم ألفى ألف سوى أعطياتهم وأمر عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكان الحجاج يبغضه ويقول:

ـ ما رأيته قط إلا أردت قتله .

وسمع الشعبى ذلك من الحجاج ذات يوم فأخبر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث به فقال عبد الرحمن بن الأشعث :

ـ والله لأحاولن أن أزيل الحجاج من سلطانه .

فلما أراد الحجاج أن يبعث عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على ذلك الجيش أتاه إسماعيل بن الأشعث فقال له :

ـ لاتبعثه فوالله ما جاز جسر الفرات فرأى لوالٍ عليه طاعة وإنى أخاف خلافه .

فقال الحجاج :

ـ هو أهيب لى من أن يخالف أمرى .

وسيره على ذلك الجيش إلى بلد روتبيل .

وسار ابن الأشعث بالجيش حتى قدم سجستان فجمع أهلها فخطبهم ثم قال:

ـ إن الحجاج ولانى ثغركم وأمرنى بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم ، فإياكم أن يتخلف أحد فتمسه العقوبة .

فعسكروا مع الناس وتجهزوا ، وسار ابن الأشعث بأجمعهم .

ولما بلغ الخبر روتبيل أرسل إلى ابن الأشعث يعتذر ويبذل الخراج ، ولكن عبد الرحمن بن الأشعث لم يقبل منه ، وسار إليه ودخل بلد الترك ، وترك روتبيل المسلمين أرضا أرضا ورستاقا رستاقا وحصنا حصنا ، وابن الأشعث يحوى ذلك ، وكلما حوى بلدا بعث إليه عاملا وجعل له أعوانا وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب حتى جاز **من أرض الترك أرضا عظيمة وملأ المسلمون أيديهم من الغنائم العظيمة فمنع ابن الأشعث الناس من الوغول فى أرض الترك وقال :**

ـ نكتفى بما أصبناه العام من بلدهم حتى نجوبها ونعرفها ، وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها إن شاء الله تعالى ، حتى نقاتلهم فى آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم وأقصى بلادهم حتى يهلكهم الله تعالى .

وأشار سعيد بن جبير إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أن يكتب إلى الحجاج ابن يوسف فكتب ابن الأشعث إلى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد أن يعمل .

وكان على الحجاج أن يقدر لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث موقفه ويشجعه ولو بكلمات تفعل فعل الساحر الحميد فى نفسية القائد المناضل وجنوده المغاوير ، وحتى لا يتكرر ما حدث لعبيد الله بن أبى بكرة وجنوده ، ولكن الحجاج عارض الهدنة المؤقتة وبعدها الاستيلاء التدريجى على بلد الترك ، فهل نسى الحجاج أن روتبيل ترك جيش المسلمين يفعلون بذلك طمعا فى أن ينالوا منه ما نال عبيد الله بن أبى بكرة ؟

وكتب الحجاج إلى ابن الأشعث :

يا ابن الحائك الغادر ، إن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ، ويستريح إلى الموادعة، قد صانع عدوا قليلا ذليلا ، ولعمرى يا ابن أم عبد الرحمن إنك حين تكف عن ذلك العدو ومعك جندى واحد لسخى النفس عمن أصيب من المسلمين ، إنى لم أعد رأيك مكيدة ، ولكنى عددته ضعفًا وجبنا والتياث رأى ، فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم، فإنها داركم حتى يفتحها الله عز وجل عليكم .

وبعث الحجاج بن يوسف كتابا آخر إلى ابن الأشعث قال فيه :

أما بعد :

إن أمضيت لما أمرتك وإلا فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس وصيرتك من تحت يده كبعض أهل المصر .

❊ **خلعنا الحجاج عدو الله .**

غضب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وقال :

يكتب إلى ابن أبى رغال بمثل هذا الكتاب ، وهو والله الجبان ، وأبوه من قبله.

وعزم ابن الأشعث على خلع الحجاج .

ودعا عبد الرحمن بن الأشعث الناس وقال لهم :

أيها الناس : إنى لكم ناصح ولصالحكم محب ولكم فى كل ما يحيطكم نفعه ناظر، وقد كان فيما بينى وبين عدوى بما رضيه ذوو أحلامكم وأُلُو التجربة منكم ، وكتبت بذلك إلى أميركم الحجاج ، فأتانى كتابه يعجزنى ويضعفنى ويأمرنى بتعجل الوغول بكم فى أرض العدو ، وهى البلد التى هلك فيها إخوانكم بالأمس ـ يعنى أصحاب عبيد الله بن أبى بكرة ـ وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وأأبى إذا أبيتم .

فقالوا :

ـ لا بل نأبى على عدو الله عز وجل أمره ولا نسمع له ولا نطيع ، فإن ابن أبى رغال لا يريد بنا خيرا.

وكان فى طليعة الثائرين على الحجاج سعيد بن جبير ، فلما رأى الناس ذلك قام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانى وكان خطيبا شاعرا وله صحبة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد :

فإن الحجاج والله ما يرى لكم إلا ما يرى القائل الأول : احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فهو لك .

والله ما يبالى أن يخاطر بكم فيقحمكم بلادا كثيرة فيغشى اللهوب ـ جمع لهب وهو وجه الجبل لا يمكن ارتقاؤه ـ واللصوب ـ جمع لصب وهو مضيق الوادى ـ والعقاب، فإن ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم أنتم الأعداء البغضاء ، الذين لا يبالى عنتهم ولا يبقى عليهم.

اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن ، فإنى أشهدكم أنى أول خالع للحجاج عدو الله.

ثم قام عبد المؤمن بن شبث بن ربعى :

إنكم إن أطعتم الحجاج جعلها بلدكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون لجنده ، والله ما يبالى أن تهلكوا أو تقتلوا .

فنادى الناس من كل جانب :

ـ خلعنا الحجاج عدو الله .

ووثبوا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يبايعونه .

فيقول لهم :

ـ تبايعون على خلع عدو الله الحجاج ، وعلي نصرتى ، وعلى جهاد عدو الله وعدوى معى حتى ينفيه الله عز وجل من أرض العراق .

فبايعه الناس .

ولم يذكروا خلع أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .

*** الثورة .. والعودة إلى العراق :**

كانت ثورة الحجاج بن يوسف على عبد الرحمن بن الأشعث لا تتعلق بمصلحة القتال والحرب مع الترك ، بل مصلحة شخصية فهو يرى فى ابن الأشعث منافسا خطيراً يقوم له الناس ويقعدون ، وإن وقعت الهدنة بينه وبين روتبيل ملك الترك كما يريد عبد

الرحمن بن الأشعث فسوف يتفرغ إلى جمع قلوب الناس حوله والتفاف المسلمين حول رايته ، ومن تعظم مكانته ويحتل فى بلاط الدولة السفيانية منزل المنافس العنيد .

لذا بادر الحجاج بن يوسف بعزل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وتهديده .

فكان تمرد ابن الأشعث وثورة أصحابه على الحجاج .

وصالح ابن الأشعث رتبيل على أن ظهر ـ هزم الحجاج بن يوسف ونفاه عن العراق ـ فلا خراج عليه أبدا ما بقى ، وإن هزم فأراد منعه .

ورجع ابن الأشعث إلى العراق ، فسار بين يديه ـ أمامه ـ أعشى همذان ، وجعل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على مقدمته عطية بن عمرو العنبرى ، وجعل على كرمان حريثة بن عمرو التميمى .

*** خلع أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :**

لما بلغ جيش ابن الأشعث فارس اجتمع الناس بعضهم إلى بعض وقالوا :

ـ إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك بن مروان فد خلعنا عبد الملك .

فاجتمعوا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وكان أول من خلع عبد الملك بن مروان تيجان بن أبحر من تيم الله بن ثعلبة فقام وقال :

ـ أيها الناس : إنى خلعت أبا ذَبَّان كخلعى قميصى .

فخلعه الناس إلا قليلا منهم .

وكان فى مقدمة الثائرين : عامر الشعبى، وسعيد بن جبير ، وحطيط الحرامى ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، والفضيل بن مزوان ، وإبراهيم بن يزيد النخعى ، وأعشى همذان و . . . و . . . . و . . .

*** المهلب يكتب إلي ابن الأشعث :**

كتب المهلب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حين بلغه خلعه :

يا ابن محمد قد وضعت رجلك فى غرز طويل الغى ، فالله الله يا ابن أخى انظر إلى نفسك ولا تهلكها ، واتق الله عز وجل فى دماء المسلمين أن تسفكها ، والبيعة ـ

لأمير المؤمنين عبد الملك ـ فلا تنكثها ، والجماعة فلا تفارقها ، فإن قلت : أخاف الناس على نفسى فالله أحق أن تخافه .

والسلام .

وكتب المهلب إلى الحجاج بن يوسف :

أما بعد :

فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحط من عل ليس يرده شيء حتى ينتهي إلى قراره ولأهل العراق شرة فى أول مخرجهم ، وبهم صبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس يبلى بردهم دون أهليهم **فلا تستقبلهم** ، **وخل لهم الطريق حتى يأتوا البصرة** فيواقعوا نساءهم ويتنسموا أولادهم ، **فترق قلوبهم** ، **ويخلدوا إلى المقام فى منازلهم** ، **فيتفرقوا عن ابن الأشعث** ، ثم واقع من حاربك منهم ، فإن الله عز وجل ناصرك عليهم.

*** هزيمة أصحاب الحجاج بن يوسف :**

كتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بخبر ابن الأشعث ويسأله أن يعجل بعثة الجنود إليه فقد لاقت ثورة وتمرد عبد الرحمن بن الأشعث تأييدا إجماعيا من العراق **وخاصة أن أعلام الفقه وأئمة العلم كانوا فى مقدمة الثائرين** .

وسار الحجاج بأصحابه من البصرة ليلقى ابن الأشعث فنزل (تستر) وقدم بين يديه مقدمة إلى دجيل فلقوا عنده خيلاً لعبد الرحمن بن الأشعث ، فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد .

وكان ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين من الهجرة ، وقتل منهم جمع كثير.

وتلاحقت انتصارات عبد الرحمن بن الأشعث ، وكاد يتم له النصر الساحق فى مواقع متتالية أخذت تتلاحق وتتابع .

وانسحب الحجاج من البصرة فدخلها ابن الأشعث وأصحابه فبايعه جميع أهل البصرة قراؤها وكهولها .

*** لماذا ثار أهل العراق فى وجه الحجاج ؟**

رأى العلماء : سعيد بن جبير ، والشعبى ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى و . . .

و . . . ظلم الحجاج وقسوته فلم يعتزلوا الناس فى مساجدهم بل عملوا على تخفيف الحدة للطاغية بالنصيحة والموعظة فلم تزد الطاغية إلا طغيانا ، فقد بلغت قسوة الحجاج بالعراق مبلغا أثار النفوس وأشعل الغضب فى الصدور ، فقد كانت الدماء المراقة والأشلاء المتطايرة ، والسجون المكتظة بالأبرياء مثارًا للحنق والغضب والتبرم ولم يرع الحجاج فى قسوته ووحشيته دينا ولا مروءة ، فكان يعنف ويبالغ فى التعنيف والتعذيب حتى لا يترك فى النفوس موضعا لسكينة واطمئنان ، وأصبح الناس بين خائف على نفسه يستكين ويذل ، ومجاهر بالثورة يستقبل الموت راضيا مسرورا ، متخلصا من حياة الذل والهوان.

وكانت لقسوة الحجاج بواعث نفسية ترجع إلى شعوره بضعة أهله وتعالى الناس عليه ممن ينتمون إلى قبائل جهيرة ويفوقهم الحجاج - فى رأيه الخاص - ذكاء وتجربة وحزما ، هذا إلى جانب طموحه الخارق إلى أسباب السيادة والسيطرة طموحا جعله رجل الدولة الصارم ، **وسيف بنى مروان بن أمية البتار فألقى** الرعب فى القلوب وبث فى النفوس القلق والذعر فوضع الناس على أفواههم كمامات .

*** عبد الملك بن مروان يعرض على الثوار عزل الحجاج :**

قال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وأهل الشام :

- إن كان يرضى أهل العراق أن ينزع الحجاج عنهم نزعناه ، فإن عزله أيسر من حربهم ونحقن بذلك الدماء .

وبعث عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان - كان بأرض الموصل - إلى الحجاج فى جند كثيف وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج، وأن يجريا عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث أى بلد شاء من بلد العراق ، فإذا نزل به كان **واليا** عليه ما دام حيا وعبد **الملك بن مروان خليفة** ، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك **عزل الحجاج** عنها وصار محمد بن مروان أمير العراق - بدلا من الحجاج - وإن رفض أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالى القتال ومحمد بن مروان ، عبد الله بن عبد **الملك** فى طاعته.

لم يأت الحجاج بن يوسف أمر قط كان أشد وأوجع لقلبه من ذلك مخافة أن يقبل أهل العراق عزله فيعزل عنهم ، فكتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

والله لو أعطيت أهل العراق نزعى ـ عزلى ـ لم يلبثوا إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك ، ألم تر وبلغك وثوب أهل العراق مع الأشتر على أمير المؤمنين عثمان بن عفان فقتلوه ؟ وأن الحديد بالحديد يفلح .

فلما جاء كتاب الحجاج الخليفة **رفض عبد الملك بن مـروان إلا عـرض عـزل الحجاج .**

ولما اجتمع عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان مع الحجاج بن يوسف ، خرج عبد الله بن عبد الملك وقال :

ـ يا أهل العراق : أنا ابن أمير المؤمنين ، وهو يعطيكم كذا وكذا .

وخرج محمد بن مروان وقال :

ـ يا أهل العراق : أنا أخو أمير المؤمنين ورسوله وهو يعطيكم كذا وكذا .

فقال أهل العراق :

ـ نرجع العشية .

فرجعوا واجتمعوا عند عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال لهم :

ـ قد أعطيتكم أمرا ، انتهازكم اليوم إياه فرصة ، وإنكم اليوم على النَّصَف ـ الحق ـ فإن كانوا اعتدوا عليكم يوم (الزاوية) ، فأنتم تعتدون عليهم يوم (تستر) ، فاقبلوا ما عرض عليكم وأنتم أعزاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فوالله لازلتم عليهم جُرآء أعزاء أبدا ما بقيتم إن أنتم قبلتم .

فوثب أهل العراق من كل جانب وقالوا :

ـ إن الله أهلكهم فأصبحوا فى الضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة ، لا والله لا نقبل.

وأعادوا خلعه ثانية .

وكان أول من قام بخلعه بدير الجماجم عبد الله بن ذؤاب السلمى ، وعمير بن تيجان ، **وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس .**

فقال عبد الله بن عبد الملك ، ومحمد بن مروان للحجاج بن يوسف :

ـ شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فإنا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع .

فتنفس شيطان ثقيف فى ارتياح .

وكان بذلك إيذانا بالقتال .

*** لما بنى شيطان ثقيف واسطا :**

لما أراد الحجاج بن يوسف بناء واسط قال بعض الدهاقين :

ـ إن الطواعين بها كثيرة ، وقد أراد كسرى بناءها ونزولها فكرهها .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أراد العلج أن يصرفنا عنها .

وأراد شيطان ثقيف أن يتخذ لعلع ـ منزلاً بين البصرة والكوفة ـ دارا ، فبنى مسجدا، وأمر أن تبنى أساطين قُرَيْب بعضها من بعض إلى البصرة والكوفة ، وأراد أن يقيم على كل أسطوانة رجلا يصلى صلاة الليل فى شهر رمضان ، فإذا كبر الإمام كبر الذى يليه ثم الذى يليه حتي يصل التكبير إلى البصرة والكوفة ، فيصلون بصلاته.

ولما بلغ الحجاج خروج ـ تمرد ـ ابن الأشعث تطير ، فبنى واسط القصب ، وسماها واسط لأنها من البصرة والكوفة ، والمدائن والأهواز ببعد واحد .

وكان بناء واسط سنة ثلاث وثمانين .

وقيل :

فى سنة أربع وثمانين ، وبنى مسجدها وقصره فيها والقبة الخضراء وكانت أرض قصب فسميت واسط القصب .

ولما بَنَى مُبير ثقيف واسطا سأل جامع المحاربى :

ـ كيف ترى ؟

قال جامع المحاربى :

- بنيتها فى غير بلدك تدعها لغير ولدك .

وسار الحجاج بن يوسف من إيلياء - بيت المقدس - إلى واسط فى سبع - سبع ليال - فقال الراجز :

كسيره من إيلياء فأعلمى سبعا إلى واسط فى تجشم .

فتساءل شيطان ثقيف :

- هل سار أحد سيرى ؟

قال صالح بن كدير المازنى :

- نعم ، جبير بن حية سار فذكر سيرا شديدا .

فقال الحجاج بن يوسف :

- كذبت .

وأمر بحبس صالح بن كدير .

وقال الفرزدق فى الحجاج :

سما بالمهاري من فلسطين بعدما دنا الفَيْءُ من شمس النهار فولت
فما عاد ذلك اليوم حتى أناخها بميسان قد حلت عراها وكلت
فلو أن طيرا كلفت مثل مسيره إلى واسط من إيلياء لملت

وقال الحجاج لإسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم وهو فى قصره بواسط :

- كيف ترى قصرى ؟

قال إسماعيل :

- أرى قصرا ستعظم المؤنة لمن أراد هدمه

قال شيطان ثقيف :

- ويحك ما خالف بك إلى ذكر الهدم ؟

※ الحجاج والعلماء :

※ الحجاج وسعيد بن المسيب :

كان الحجاج طاغية العراق يدين بفلسفة القوة والإرهاب ، فليس من همه أن يستميل القلوب بمعسول القول وجميل الفعل إذ ان ظروف حياته وحوادث عصره وفتن بيئته قد جعلته لا يعبأ بمهادنة واستمالة ، وإنما يرى الطغيان سبيل الهدوء والإستقرار ، **وقد اختاره أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ليقمع ويردع لا ليؤلف ويقرب ، ووجد بعد التجربة أن القمع يدنى من مآربه ، ويرفع من مكانته لدى أمير المؤمنين فتمادى فيه تماديا جائرا ، ووطن عزمه على أن يقوم السيف بواجب الطاعة والخضوع مهما امتلأت منه القلوب موجدة وغيظا .**

صلى الحجاج بن يوسف مرة بجنب سعيد بن المسيب ـ قبل أن يلى الحجاج شيئا ـ فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله فى السجود ، فلما سلم أخذ سعيد بن المسيب بطرف ردائه وقال له :

ـ يا سارق يا خائن تصلى هذه الصلاة ، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك

فلم يرد عليه الحجاج .

ثم مضى الحجاج إلى الحج ، ثم رجع فعاد إلى الشام ، ثم جاء نائبا على الحجاز ، فلما قتل ابن الزبير كَرَّ الحجاج راجعا إلى المدينة نائبا عليها فلما دخل المسجد إذ مجلس سعيد بن المسيب فقصده الحجاج ، فخشى الناس على سعيد بن المسيب منه ، فجاء الحجاج وجلس بين يديه ـ أمامه ـ وقال له :

ـ أنت صاحب الكلمات ؟

فضرب سعيد بن المسيب صدره بيده وقال:

ـ نعم .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ فجزاك الله من معلم ومؤدب خيرا ، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك

ثم قام ومضى .

وكان سعيد بن المسيب معتزلا الفتنة فلما كان جابر بن الأسود عامل عبد الله بن

الزبير على مدينة رسول الله ﷺ وطلب من ابن المسيب البيعة لابن الزبير امتنع فضرب ستين سوطا ، ولم يتراجع عن موقفه ورأى ذلك هينا فى سبيل الله .

وأمر الحجاج بن يوسف بالبيعة لعبد الملك بن مروان فامتنع ابن المسيب ، فهدده طاغية ثقيف بضرب عنقه ، فلم يتراجع .

وعرض عليه الحجاج واحدة من خصال ثلاث :

أن يقرأ الوالى كتاب البيعة على الجمهور ، فيسكت سعيد بن المسيب دون أن يقول:

- لا أو نعم .

أو أن يجلس فى بيته فلا ينهض إلى المسجد أياما حتى تنتهى بيعة أهل المدينة .

أو ينتقل من مكانه بالمسجد لا يجده رسول عبد الملك إذا أتاه .

ورفض سعيد بن المسيب هذه العروض ، وكان العرض الثالث مندوحة تقية دون أن تخدش رأيه ، ولكنه وضع نفسه موضع الزعامة الكريمة للمسلم الصادق ليسد كل ثنية يلج بها الباطل مأربه .

وكان سعيد بن المسيب يعلم حقيقة ما ينتظره من عذاب ، فما أن أعلن مخالفته **حتى جرد من ثيابه وضرب خمسين سوطا ، وطاف به السفهاء في أسواق المدينة وهم يقولون :**

- هذا موقف الخزى يوم القيامة .

فيرد عليهم ابن المسيب :

- بل فررنا من الخزى يوم القيامة بما فعلتموه وفعلناه .

*** يحيى بن يعمر والحجاج :**

كان يحيى بن يعمر العَدَوَانى أحد العلماء المتضلعين في علوم الشريعة والعربية ومن أفاضل التابعين ، فقد شارك مشاركة مثمرة في غرس بذور النحو مع أبى الأسود الدؤلى، وكان من الشجاعة الأدبية فى الحق والجرأة الخلقية فى مواجهة الطغيان بالمكان السامق والمنزل المرموق.

وقد شاء القدر أن يبتلى يحيى بن يعمر بالحجاج بن يوسف ، فواجه وكابر وأدى

دوره مرفوع الرأس عالى الجبين .

رأى الحجاج بن يوسف أن الكوفة تهيم حبا بالحسين بن على وتجعل من ذكراه الدموية منحدرا للدمع ومصعدًا للزفير ، وكافح الحجاج وجاهد فى تبديد هذا الحب الوثيق ولكنه لم يستطع ، وكان يعلم قرابة السبط الشهيد من خاتم الأنبياء ﷺ تجمع عليه القلوب وتضعه بين الجوانح والشغاف ، ففكر الحجاج وقدر ، ثم رأى أن يعلن أن ريحانة رسول الله ﷺ هو ابن على بن أبى طالب بن عبد المطلب وليس من ذرية محمد ابن عبد الله ﷺ لأن انتسابه لفاطمة الزهراء لا يغير من الأمر شيئا فالأب هو المعتبر فى النسب دون الأم على قول من قال :

بنـونا بنو أبنائنا وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وتحدث الحجاج فى ذلك وأطال الحديث ، وراح يتتبع معارضيه ، مخالفيه سجنا وتشريدا ، ويرسل عيونه ـ جواسيسه ـ فى الكوفة ، يأتونه بمعارض يصدر عن غير رأيه فيجعل من عقابه رادعا لغيره وجاءه الخبر أن يحيي بن يعمر سئل عن الحسين وانتمائه للمبعوث رحمة للعالمين ﷺ فأجاب فى المسجد الجامع :

ـ إن الحسين والحسن من ذرية رسول الله ﷺ وأن الحجاج يحكم ولا يفتى ، فإذا أفتى فعن غير علم واعتقاد .

ولم يعجب الحجاج بن يوسف ما بلغه عن يحيى بن يعمر فهو يعرف جرأته وشجاعته ، وكثيرا ما اصطدم معه فى جدل مذهبى ، فكان يحيى صاحب الحجة الفاصلة والمنطق الراجح دون أن تعصف به رهبة أو يلين من ثباته.

وكان يحيى بن يعمر مسموع الكلمة محترم الرأى ، فإذا أفتى بما يعارض الحجاج فقد تمكن من قلوب الناس فذهبت دعوى الحجاج فى الحسين بن على أباديد .

وأراد الطاغية أن يسكت صوت الحق عن طريق الإدعاء والتعنت فيلزم يحيى بن يعمر بنص واضح من القرآن يؤيد دعواه ، ولكن ليس فى القرآن منطق يثبت ذلك فى منطق الحجاج ، فإذا أعلن يحيى عجزه عن الاستشهاد بالقرآن فقد قامت عليه الحجة في رأى الجمهرة من العامة وللحجاج بعد ذلك أن يتطاول على يحيى بن يعمر مستكثرا بأمير المؤمنين والجبروت حتى يخذله خذلانا مبينًا لا نجح بعده . . هكذا قدر الطاغية وأراد.

وتعجل الحجاج وعقد مجلسا حاشدا من أعوانه ووجهاء الكوفة ، ودعا معهم

بعض العلماء :عامر الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وشيعة يحيى ومقدرى علمه وفضله لينكشف أمامهم فى المعمعة عجزه،فيضيع ما ينسب إليه من علم وثبات.

وأرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر ليتجرع كأس الهزيمة والانكسار ، فلما قدم يحيى ألقى تحية الإسلام ثم هم بالجلوس ، ولكن الحجاج صاح به :

ـ لا تقعد يا يحيى وأوضح لنا رأيك فى صلة الحسين برسول الله ﷺ .

فقال يحيى بن يعمر فى اطمئنان وكبرياء وثبات :

ـ الحسين والحسن من ذرية رسول الله ﷺ وإن غضب الحجاج .

فصاح الحجاج متشمرًا ومتحفزًا :

ـ ألديك دليل من كتاب الله ؟

فقال يحيى بن معمر :

ـ معى الدليل من القرآن .

فضرب الحجاج كفا بكف وقال متهكما :

ـ ما شاء الله ، فى القرآن أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ؟ لقد قرأته مئات المرات فما وجدت ما تقول يا رجل.

نظر يحيى بن معمر فى وجوه الحاضرين وقال فى ثقة بالغة وإيمان وثاب :

قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [سورة الأنعام الآية : ٨٣ ـ ٨٥] .

ثم تطلع يحيى بن يعمر إلى الحاضرين وتساءل :

ـ أيكون عيسى بن مريم من ذرية إبراهيم بنص القرآن ولا يكون الحسين من ذرية رسول الله ﷺ ، وبينهما من القرابة الدانية أكثر مما بين عيسي وإبراهيم أيها الناس؟

اقتحمت وجه الحجاج قطعا من الليل المظلم فهل جاء يحيى بن يعمر بالدليل صاعقا

قاصما ؟

واعتصم الحجاج بذكائه ليسعفه برد مضلل ، ولكنه لم يستطع فتبسم فى تصنع وقال:

ـ اجلس يا يحيى ، فقد فاتنى هذا الإستنباط .

وأراد الحجاج أن يوارى حزنه وحقده وفشله فقال وهو يودع القوم :

ـ إن القرآن بحر لا ساحل له ، وإن العربية الفصحى لا تسلس قيادها لغير من يحفظ القرآن وأنه هو وحده الذى أمر يحيى بن يعمر أن يضع النقط علي حروف المصحف ، لتسهل سبيل الحفظ الدقيق والاستظهار الصحيح .

ورأى الحجاج أن يجامل يحيى بن يعمر فسأله :

ـ أتجدنى ألحن فى قولى يا ابن يعمر ؟

فتبسم يحيى ابتسامة المتهكم وقال فى لهجة ذات مغزى :

ـ الأمير أفصح من ذلك .

فاغتاظ الحجاج بن يوسف وصاح قائلا .

ـ عزمت عليك : أتجدنى ألحن ؟

قال يحيى بن يعمر :

ـ نعم أيها الأمير

فنظر الحجاج مبهورا وقال :

ـ ألحن في أى شيء ؟

قال يحيى بن يعمر :

فى كتاب الله .

فنهض الطاغية مغتاظا وهو يقول :

ـ ذلك أسوأ لو كان ، ففى أى حرف لحنت ؟

فقال يحيى بن يعمر فى تحد :

قرأت بالمسجد الجامع ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة الآية : ٢٤] .

فضممت الباء وهى مفتوحة .

فتغير وجه الحجاج بن يوسف ، وحدثته نفسه أن يهم بيحيى بن يعمر ، ولكن انهياره النفسى أورثه ترددا لا عهد له به ، ثم إنه خشى أن يصيبه بسوء فيتناقل الناس فى الأمصار قصة حجاجه فى نسب ريحانتى رسول الله ﷺ وينتهى إلى قصر دمشق عند أمير المؤمنين وما كان من تهوره حين جادل فى أمر لا يقبل الجدل فمكن لخصوم الدولة السفيانية والمروانية من الإنتصار .

وأراد أحد الحاضرين أن يصرف الحديث إلى موضوع آخر فأخذ يسأل الحجاج عن مدينة (واسط) التى شيدها الحجاج باذلا جهده الجاهد فى التعمير والتشييد فقال الحجاج ليحيى :

ـ لم تذكر لنا رأيك فى مدينة واسط يا يحيى ؟

فسكت يحيى بن يعمر ولم يرد ، فعاد الحجاج يتساءل فى غيظ :

ـ ما رأيك يا يحيى فى مدينة (واسط) التى شيدتها ؟

قال يحيى بن يعمر :

ـ ماذا أقول عن (واسط) وقد شيدتها من غير مالك ، وسيسكنها غير أهلك .

ولم يعد فى قوس الصبر لدى الحجاج من منزع ، وتلهب جمر الغيظ فى صدره فقال فى انفعال :

ـ ما حملك على هذا ؟

فقال يحيى بن يعمر :

ـ ما أخذ الله تعالي على العلماء فى علمهم ألا يكتموا الناس حديثا .

فأطرق الحجاج منخذلا ، وساد الصمت ، وأراد الطاغية أن يقوم بعمل ينقذ خشيته وهيبته فصاح فى وجه يحيى بن يعمر :

ـ لا تساكنى ببلد أنا فيه ، فاذهب منفيا إلى (خراسان) .

ولما ذهب يحيى بن يعمر إلى (خراسان) وجد صيته الطائر قد سبقه إلى هناك، وسأله سائل :

ـ ألم تخش سيف الحجاج ؟ :

فقال يحيى بن يعمر فى إيمان الواثق :

ـ لقد ملأنى خشية الله فلم تدع مكانا لخشية إنسان .

*** عامر الشعبى والحجاج :**

كان الحجاج بن يوسف يقرأ القرآن فإذا عجز عن تفسير آية بعث إلى عامر الشعبى سأل الحجاج عامر الشعبى ذات يوم عن كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقال :

إن رسول الله ﷺ كان يكتب باسمك اللهم ، حتى أمر أن يكتب بسم الله فكتبها، فلما نزلت ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [سورة الإسراء الآية : ١١٠] كتب باسم الله الرحمن ، فلما نزلت ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [سورة النمل الآية : ٣٠] كتبها .

وقال أيضا :

إن النبي ﷺ لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة النمل وقد اتفقت الأمة على جواز كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كتاب من كتب العلم والرسائل وأجمعوا ألا يكتبوها أمام الشعر .

وشكا رجل إلى عامر الشعبى وجع الخاصرة فقال :

عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب ، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة لأنها منها دُحيتْ ، وأساس السموات عريبا وهى السماء السابعة ، وأساس الأرض عجيبا وهى الأرض السابعة السفلى، وأساس الجنان جنة عدن وهى سرة الجنان عليها أسِّست الجنة ، وأساس النار جهنم ، وهى الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبياء نوح ، وأساس بنى إسرائيل يعقوب ، وأساس الكتب القرآن ، وأساس القرآن الفاتحة ، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ، فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

وسأل الحجاج عامر الشعبي عن كلمة حين ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [سورة إبراهيم الآية : ٢٥] .

قال عامر الشعبى :

ـ الحين ستة أشهر .

وسئل الشعبى عن من صلي في جماعة هل يعيدها ؟

قال الشعبى :

ـ جائز لمن صلى فى جماعة ووجد أخرى فى تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء، لأنها نافلة وسنة .

وسأل الحجاج بن يوسف عامر الشعبى :

ما تقول فى ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [سورة البقرة الآية : ٦٣] .

قال عامر الشعبى :

ـ هذا هو المقصود من الكتب ـ التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن ـ العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ، فإن ذلك نبذ لها .

فقال الحجاج :

ـ هل القاتل عمدا يرث ؟

قال الشعبى :

ـ لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا من المال ولا من الدية .

فقال الحجاج :

ـ ما تقول يا ابن الشعبي فى قصاص العبد ؟ :

قال عامر الشعبى :

ـ لا قصاص بين العبيد إلا فى النفس .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ ما تقول فى ميراث المرتد ؟

قال عامر الشعبى :

ـ ميراث المرتد لورثته من المسلمين .

فقال الحجاج :

ـ ما معنى الكلالة ؟

قال عامر الشعبى :

الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ ما تقول : فى رد السلام على أهل الذمة ؟

قال الشعبى :

وإن اختلف فى رد السلام على أهل الذمة فإنى أراه واجبا كالرد على المسلمين .

وسأل الحجاج عامر الشعبى ذات يوم عن قوله تعالى : ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ﴾ [سورة النحل الآية : ٦٧] .

فقال الشعبى :

نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، وأراد بالسكر الخمر وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقيل :

السكر : العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى ، فإذا بلغ الإسكار حرم .

وسأل الحجاج بن يوسف عامر الشعبى:

ـ هل لإبليس زوجة ؟

قال الشعبى :

ـ إن ذلك عرس لم أشهده .

فضحك الحجاج وقال :

فما تقول فى قوله تعالى : ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي** ﴾ [سورة الكهف الآية : ٥٠] ؟.

فأدرك الشعبى أنه لا يكون للسفيه ذرية إلا من زوج . فقال :

ـ نعم .

فقال الحجاج :

ـ ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [سورة غافر الآية : ٤٣] .

قال عامر الشعبى :

هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها .

وخرج الشعبى فى جنازة فسئل عن قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [سورة المرسلات الآية: ٢٥] .

فنظر إلى المقابر ـ الجبان ـ

فقال: هذه كفات الأموات .

ثم نظر إلى البيوت فقال :

ـ هذه كفات الأحياء.

كفاتا : أى : ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات فى بطنها.

كفت الشيء : إذا جمعته وضمته ، الكفت : الضم والجمع .

وسأل الحجاج عامر الشعبى عن قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [سورة الانشقاق الآية: ١٩] .

فقال الشعبى :

بفتح الباء خطابا للنبى ﷺ : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، ودرجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة فى القربة إلى الله تعالى .

*** الحسن البصرى والحجاج :**

يكنى أبا سعيد :

كان أبوه من أهل بيسان ـ نيسابور ـ فسبي فكان مولي زيد بن ثابت الأنصارى .

ولد الحسن في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وحنكة الفاروق بيده ، ودعا له فقال :

ـ اللهم فقهه فى الدين وحببه إلى الناس .

أمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة .

كانت زوج رسول الله ﷺ إذا بعثت جاريتها خيرة فى قضاء حاجة بكى الحسن بكاء شديدا فتعطيه أم المؤمنين أم سلمة ثديها وتضعه في حجرها ، وتعلله بثديها ، وربما در عليه فشرب منه .

فكان يقال :

ـ إن المبلغ الذى بلغه الحسن البصرى من الحكمة والعلم والفصاحة من بركة ذلك اللبن الذى شربه من أم المؤمنين أم سلمة زوج خاتم الأنبياء ﷺ ، ودعوة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وكان الحجاج بن يوسف يبعث فى طلب الحسن يسأله فى التفسير والفقه، وكان الحسن يكره الحجاج .

ذات يوم كان الحسن جالسا فى المسجد الجامع إذ طلع الحجاج على برذون أبيض وحوله شرط يسعون ، حتي انتهى إلى الحلقة فسلم ، ثم ثنى رجله فنزل وجلس بين أبى نعامة والحسن الذى مضى فى حديثه ، فلما فرغ الحسن من حديثه قال الحجاج :

ـ إن هذا الشيخ شيخ مبارك معظم لحق أهل القبلة ، ناصح لأهل الملة ، صاحب سنة واستقامة ونصيحة للعامة ، فعليكم به ، فاحضروه وأشهدوا مجلسه ، فإن مجلسه مجلس يعرف فضله وترجى عاقبته ، فلولا الذى ابتلينا به من الشغل وبالقيام بحق الرعية وسياستهم لأحببنا مشاهدتكم وحضوركم .

ثم مالبث أن جاءت سفرة وأطعمة وأشربة ، فطعموا .

وبعد أن مضى الحجاج قام شيخ كبير فاستقبل الحسن البصرى وقال:

ـ يا أبا سعيد : شيخ كبير من أهل الديوان ، وعطائى زهيد قليل ، وما فيه فضل عن قوت عيالى، وقد أخذت بفرس وسلاح .

ثم بكى ، فبكى الحسن .

ثم قال :

ـ إن هذا السلطان ناصر لله ودينه وعباده ، وسلطاننا قد أخفر ذمة الله واستخول عباد الله ، وقتلهم على الدينار والدرهم أخذهما من خبيث ، وأنفقهما فى سرف ، مضغة قليلة وندامة طويلة ، إذا خرج عدو الله فبغال رفاقة ، وسرادقات هفافة ، وإذا

خرج غيره سعى على رجله فى غيركن .

فوشى بهما رجل إلى الحجاج فبعث حرسيا إلى الحسن البصرى.

فذهب الحسن إلى الحجاج ولحق به أبو نعامة ، فلما دخل الحسن على طاغية ثقيف الذى كان معه قضيب يخطر به ، فسلم الحسن ثم قام أمام الحجاج فقال له :

- يا حسن أنت صاحب الكلم ؟

قال الحسن البصرى :

- أى الكلم أصلح الله الأمير ؟

فأخبره طاغية ثقيف ، فقال الحسن :

- نعم .

قال شيطان ثقيف :

- فما دعاك إلى هذا ؟

قال أبو سعيد :

- ما أخذ الله علينا فى الكتاب حين قال ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [سورة آل عمران الآية : ١٨٧].

وكان الحسن يفسرها لتكملن بالحق ولتصدقن العمل .

فقال الحجاج :

- اذهب أيها الرجل فقل ما بدا لك فإنما أنت والد غير ظنين علينا ، ناصح لخاصتنا وعامتنا ، فما مثلك يؤخذ بقول .

فانصرف الحسن البصرى .

وذات يوم جمع الحجاج بن يوسف علماء العراق وكان فيهم الحسن البصرى ، وعامر الشعبى ، وجعل يحادثهم ، فذكر على بن أبى طالب ، وجاراه العلماء تقربا له وأمنا من شره **إلا الحسن البصرى فقد لزم الصمت على مضض وعض إبهامه** فقد غلى مرجل غضبه ، فالتفت الحجاج إلى الحسن وسأله :

ـ يا أبا سعيد مالى أراك ساكتا ؟

فقال الحسن البصرى :

سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٤٣] .

فعلى ـ أبو الحسن ـ ممن هدى الله فهو من أهل الإيمان .

وأقول :

ابن عم رسول الله ﷺ وختنه ـ الختن : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ وهم الأختان ـ على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركة سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها.

وأقول :

إن كانت لعلى هنات ـ الهنة : الخطأ اليسير ـ فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا .

فبسر وجه الحجاج بن يوسف وتغير ، وقام عن السرير مغضبا ، وخرج جمع العلماء فقال عامر الشعبى :

ـ يا أبا سعيد : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره .

قال الحسن البصرى :

ـ فذلك أعظم فى الحجة عليك وأشد فى التبعة .

كيف يلزم الحسن البصرى الصمت وقد رأى مظالم وقسوة الحجاج بن يوسف الذى قتل عشرات الألوف ؟ إنه فى طليعة المتذمرين من هذا البغى الصريح الذى يرى النفوس ترد حتفها فى غير حق ، وقد استشرى الطغيان استشراء لا يقف وراء حد.

وذات ضحى بعث الحجاج إلى الحسن البصرى وقد هم به ، فلما قام بين يديه ـ أمامه ـ قال:

ـ يا حجاج : كم بينك وبين آدم من أب ؟

قال سفاح ثقيف :

- كثير .

قال أبو سعيد :

- فأين هم ؟

قال طاغية ثقيف :

- ماتوا .

فنكس الحجاج رأسه ، وخرج الحسن من قصر شيطان ثقيف .

وأراد سفاح ثقيف قتل الحسن البصرى مرارا ولكن العزيز الحكيم عصم أبا سعيد منه .

وقد جرت بين الحجاج والحسن مناظرات ، وكان أبو سعيد يرى عدم الخروج على طاغية ثقيف ويقول :

- إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف ، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع - الدعاء -

*** لا تعرض له يا حجاج :**

وذات ضحى قدم الحجاج بن يوسف على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وافدا، ومعه **معاوية بن قرة أبو إياس** ، فسأله عبد الملك عن الحجاج فقال :

إن صدقناكم قتلتمونا ، وإن كذبناكم خشينا الله عز وجل .

فنظر شيطان ثقيف إلى معاوية بن قرة فقال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان:

- لا تعرض له يا حجاج .

فلما رجعا إلى الكوفة غرب - نفى - سفاح ثقيف معاوية بن قرة إلى السند .

*** وقعة دير الجماجم :**

سار الحجاج بن يوسف من البصرة إلى الكوفة لقتال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فنزل بجنده من أهل الشام دير قرة .

وخرج عبد الرحمن بن الأشعث من الكوفة إلى دير الجماجم .

وكان ذلك فى شعبان سنة ثلاث وثمانين من الهجرة .

فقال الحجاج بن يوسف متفائلا :

ـ إن عبد الرحمن نزل دير الجماجم ونزلت دير القرة أما ترجز الطير ؟

لقد تفاءل شيطان ثقيف بهذا المنزل .

واجتمع إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أهل الكوفة وأهل البصرة والعلماء: سعيد بن جبير، عامر الشعبى، وعبد الرحمن بن أبى ليلى و . . و . . وأهل الثغور، والمصالح بدير الجماجم ، واجتمعوا على حرب طاغية ثقيف وكانوا مائة ألف .

وعبأ الحجاج بن يوسف صفوفه ، وعبأ ابن الأشعث صفوفه ووقف سعيد بن جبير فقال :

ـ قاتلوهم على جورهم في الحكم وخروجهم من الدين وتَجبرهم على عباد الله وإماتتهم الصلاة واستذلالهم المسلمين .

وحملت كتائب الحجاج على كتيبة القراء من أصحاب بن الأشعث وكان عليهم جبلة بن زحر فقام وقال بصوت مرتفع :

ـ يا ابن جبير ، يا عبد الرحمن بن أبى ليلى ، يا عامر الشعبى . يا معشر القراء إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه منكم ، إنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رفع الله درجته فى الصالحين وأتاه ثواب الصادقين والشهداء يقول يوم لقينا أهل الشام ـ يوم صفين ـ : أيها المؤمنون إنه من رأى عدوانا يُعمل به ومنكرا يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد برئ ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ونور قلبه باليقين ، فقاتلوا هؤلاء المحلين المبتدعين الذين جهلوا الحق فلا يعرفونه ، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه .

وقال أبو البخترى الطائى :

ـ أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم .

وقال عامر الشعبى :

ـ أيها الناس قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم ، والله ما أعلم على بسيط

الأرض بظلم ولا جور فى حكم منهم.

وقال جبلة بن زحر :

ـ احملوا عليهم حملة صادقة .

فحملوا على أهل الشام وضربوا الكتائب حتى أزالوها وفرقوها وتقدموا حتى واقعوا صفهم فأزالوه من مكانه ، ثم رجعوا فوجدوا جبلة بن زحر قتيلا وقد حزت رأسه وجيء برأسه إلى الحجاج فسر سرورا شديدا وبشر أصحابه.

وظل القتال مائة يوم وثلاثة أيام وكانت الهزيمة لأربع عشرة مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين واندحر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وفر هاربا تتقاذفه السبل ومزق جيشه أباديد .

*** رأس ابن الأشعث :**

ذهب عبد الرحمن بن الأشعث إلى روتبيل ملك الترك وفر سعيد بن جبير إلى أصبهان ولما علم الحجاج بن يوسف أن ابن الأشعث قد صار إلى روتبيل تتابعت كتب الحجاج إليه فى ابن الأشعث بالوعيد والترغيب والترهيب حتى خوفه أكثر من رجائه ، وكان عند روتبيل رجل من بنى يربوع يقال له عبيد بن سبع فقال لروتبيل :

ـ أنا آخذ لك من الحجاج أمانا وكتابا بوضع الخراج عن أرضك سبع سنين ولا تغزى على أن تدفع عبد الرحمن بن محمد إليه .

وبعث روتبيل برأس ابن الأشعث إلى الحجاج ، فلما رآها تحت قدميه قال:

ـ لقد كنت عالما بتيهه وسخافة عقله، ولكن الله أراد أن يهلك به جيلاً من خلقه كانت له فيهم نقم .

وتمثل :

أبى حينه والموت إلا تهورا فلاقاه عبل الساعدين شتيم

كريه المحيا باسل ذو عرامة فروس الأعناق الكماة أزوم

فقال ناعصة بن يزيد للحجاج :

ـ لا أبعد الله إلا من عصاك أيها الأمير .

وبعث الحجاج بن يوسف برأس عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .

وقيل :

لما أتى الحجاج برأس عبد الرحمن بن الأشعث سجد وقال :

ـ كنت أحب أن أوتى به أسيرا فأقيمه فيخطب على حزبه خطبة إبليس على أهل النار ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ** ﴾ [سورة إبراهيم الآية : ٢٢] .

*** انصرف يا شعبى :**

لما انهزم أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث نادى مناد الحجاج :

ـ من لحق بقتيبة بن مسلم فهو آمن .

فلحق عامر الشعبي بقتيبة بن مسلم وكان صديقا له ، فاستشاره الشعبى فقال قتيبة:

ـ اعتذر مهما استطعت .

فلما دخل عامر الشعبى علي الحجاج رأي غير ما ذكر له، فسلم عليه بالأمرة وقال:

ـ أيها الأمير : إن الناس قد أمرونى بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلا الحق ، وقد والله مردنا عليك وحرضنا وجهدنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا ، فإن سطوت فبذنوبنا ، وما جرت إليه أيدينا ، وإن عفوت فبحلمك ، وبعد فالحجة لك علينا.

قال طاغية ثقيف :

ـ أنت والله أحب إلىَّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول : ما فعلت ولا شهدت وقد أمنت يا شعبى.

ثم تساءل الحجاج بن يوسف :

ـ كيف وجدت الناس بعدنا ؟

قال عامر الشعبى :

ـ أصلح الله الأمير ، اكتحلت بعد السهر ، واستوعرت الجناب، واستحلست.

الخوف، وفقدت صالح الإخوان ، ولم أجد من الأمير خلفا .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ انصرف يا شعبى .

فانصرف عامر الشعبى وهو يكاد يطير فرحا.

*** المحاكمة :**

بعد أن قبض الحجاج بن يوسف على ناصية الأمر عقد محاكمات دامية لأصحاب عبد الرحمن بن الأشعث فأحضر محمد بن سعد بن أبى وقاص ـ كان سعد بن أبى وقاص خال رسول الله ﷺ ـ فقال له الحجاج :

ـ ياظل الشيطان ، أعظم الناس تيها وكبرا تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وابن عمر ثم ضربت مؤذنا ؟

وجعل يضرب رأسه بعود فى يده حتى أدماه .

ثم أمر بقتله .

ثم دعا بعمر بن موسى فقال له الحجاج :

ـ يا عبد المرأة أتقيم بالعمود على رأس ابن الحائك ـ يعنى ابن الأشعث ـ وتشرب معه فى الحمام ؟

فقال عمر بن موسى :

ـ أصلح الله الأمير ، فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها ، فقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وبفضلك وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أما أنها شملت البر فكذبت ، ولكنها شملت الفاجر وعفى منها الأبرار ، وأما اعترافك فعسى أن ينفعك .

ورجا له الناس السلامة ، **ولكن الحجاج أمر بقتله** .

ثم دعا الحجاج بالهلقام بن نعيم فقال له :

ـ أحببت أن ابن الأشعث طلب ما طلب ، ما الذى أملت أنت معه ؟

قال الهلقام بن نعيم :

ـ أملت أن يملك فيولينى العراق كما ولاك عبد الملك إياه.

فأمر الحجاج به فقتل .

ثم دعا الحجاج عبد الله بن عامر ، فلما أتاه قال له الحجاج :

ـ لا رأت عينك الجنة إن أفلت .

قال عبد الله بن عامر :

ـ جزى الله ابن المهلب بما صنع .

فتساءل الحجاج :

ـ وما صنع ؟

قال ابن عامر :

لأنـه كـأس فى إطـلاق أسـرته   وقـاد نحوك فى أغلالها مضرا
وقى بقومك ورد الموت أسرته   وكان قومك أدنى عنده الخـطر

فأطرق الحجاج بن يوسف وأسرها فى نفسه ووقرت فى قلبه فقال :

ـ وما أنت وذاك ؟

وأمر بعبد الله بن عامر فقتل .

ودعا الحجاج بفيروز حصين ، فقال له الحجاج :

ـ أبا عثمان : ما أخرجك مع هؤلاء ؟ فوالله ما لحمك ولا دمك من دمائهم .

قال فيروز :

ـ فتنة عمت الناس .

قال طاغية ثقيف :

ـ اكتب إلى أموالك .

قال فيروز :

ـ اكتب يا غلام : ألف ألف وألفى ألف.

فذكر مالاً كثيرا ، فقال الحجاج :

ـ أين هذه الأموال ؟

قال فيروز :

ـ عندى .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ فأدها.

فتساءل فيروز :

ـ وأنا آمن على دمى ؟

قال طاغية ثقيف :

ـ والله لتؤدينها ثم لأقتلنك .

قال فيروز :

ـ والله لا يجمع بين دمى ومالى .

فأمر الحجاج به فنحى **وأمر بقتل عمر بن أبى قرة الكندى .**

ثم أمر بفيروز فعذب ، وكان يشد عليه القصب الفارسى المشقوق يجر عليه حتى يجرح به ثم ينضح عليه الخل ، فلما أحس بشبح الموت يقترب قال للجلاد :

ـ إن الناس لا يشكون أنى قد قتلت ولى ودائع وأموال عندهم لا تؤدى إليكم أبدا، فأظهرنى للناس ليعلموا أنى حى فيؤدوا المال .

فأعلم الجلاد الحجاج فقال :

ـ أظهره .

فأخرج فيروز إلى باب المدينة فصاح فى الناس :

ـ من كان لا يعرفنى فقد عرفنى ، ومن لا يعرفنى فأنا فيروز حصين ، إن لى عند أقوام مالاً فمن كان لى عنده مال أو شىء فهو له وهو منه فى حل فلا يؤد أحد منهم درهما، ليبلغ الشاهد الغائب .

فأمر به الحجاج فقتل .

وأمر الحجاج بإحضار أعشى همذان ، فلما أقبل قال له الحجاج :

ـ يا عدو الله أنشدنى قولك : بين الأشج وبين قيس .

قال أعشى همذان :

ـ بل أنشدك ما قلت لك.

قال الحجاج بن يوسف :

ـ بل أنشدنى هذه .

فقال أعشى همذان :

أبى الله إلا أن يتم نوره ... ويطفئ نار الفاسقين فتخمدا
ويظهر أهل الحق فى كل موطن ... ويُعدل وقع السيف من كان أصيدا
وينزل ذُلا بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة ... من القول لم تصعد إلى الله مصعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا
وجبنا حشاة ربهم فى قلوبهم ... فما يقربون الناس إلا تهددا
فلا صدق فى قول ولا صبر عندهم ... ولكن فخرا فيهم وتزيدا
فكيف رأيت الله فرق جمعهم ... ومزقهم عرض البلاد وشردا؟
فقتلاهم قتلى ضلال وفتنة ... وجيشهم أمسى ذليلا مطردا
لقد شأم المصرين فرخ محمد ... بحق وما لاقى من الطير أسعدا
كما شأم الله النجير وأهله ... بجد له قد كان أشقى وأنكدا

فقال أهل الشام :

ـ أحسن ، أصلح الله الأمير .

قال داهية ثقيف :

ـ لا لم يحسن ، إنكم لا تدرون ما أراد بها.

ثم قال الحجاج :

ـ يا عدو الله ، والله لانحمدك على هذا القول ، إنما قلت : نأسف أن لا يكون

ظهر وظفره ، وتحريضا لأصحابك علينا ، وليس عن هذا سألتك ، أنشدنا قولك : بين الأشج وبين قيس باذخ .

فأنشده :

فلما قال أعشى همذان :

بخ بخ لوالده وللمولود

قال الحجاج :

ـ والله لا تبخبخ بعدها أبدا .

فضربت عنقه .

فرخ محمد : عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

الأشج : محمد بن الأشعث .

بين قيس : معقل بن قيس الرياحى .

كما شأم الله النجير وأهله : لما ارتد الأشعث بن قيس جد عبد الرحمن بعد وفاة النبى ﷺ ، وتبعته كندة ، فلما حاربهم المسلمون وحصروهم بالنجير أخذوهم وقتلوهم وأتى الحجاج بحطيط الحرامى فسأله عن أبى بكر فقال حطيط خيرا .

ثم سأله عن عمر بن الخطاب فقال حطيط خيرا .

ثم سأله طاغية ثقيف عن عثمان بن عفان فقال حطيط :

ـ لم أولد إذ ذاك .

فقال الحجاج :

ـ يا ابن اللخناء أولدت زمان أبى بكر وعمر ولم تولد زمان عثمان ؟

فقال حطيط الحرامى :

ـ يا ابن اللخناء لا تعجل على ، إن الناس أجمعوا على أبى بكر وعمر واختلفوا فى عثمان، فبوسعى أن أكله إلى الله .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ أما والله لألحقنك بالنار .

قال حطيط الحرامى :

ـ أما ترضى أن تكون مالكا فى الدنيا حتى تكون مالكا فى الآخرة ؟ ـ مالك خازن جهنم خلقه الله لغضبه إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [سورة الزخرف الآية : ٧٧] .

فغضب الحجاج وقال :

ـ على بصاحب العذاب .

فدفعه إليه وقال:

ـ أسمعنى صوته .

قال صاحب العذاب :

ـ نعم .

قال حطيط :

ـ كذب .

فجعل يعذبه حتى وضع الدهق ـ خشبتان يغمز بهما الساق، الدهق: بالتحريك ضرب من العذاب ـ على ساقيه وكان ثقيلاً فكسر إحدى ساقيه وقال:

ـ أنا فلان .

فقال حطيط :

ـ لعنك الله تتكنى على لئن كسرت ساقى.

فجعل يعذبه وحطيط ساكت لا يتكلم فكلم الحجاج بأمره ، فدعا بحمل فحمل حتى وضع بين يديه ـ أمامه ـ فقال له الحجاج :

ـ أتقرأ من القرآن شيئا ؟

فقال حطيط :

ـ بل أنت تقرأ .

فقرأ الحجاج ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [سورة الإنسان الآية : ١] حتى بلغ ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [سورة الإنسان الآية : ٨] .

فقال حطيط :

ـ وأنت تقتلهم .

وبينما الحجاج يحاور حطيط إذ وقع على بعض جراحاته ذباب فقال:

ـ حس .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ يا ابن اللخناء أتجزع من الذباب ولا تجزع من العذاب؟

قال حطيط الحرامى:

ياابن اللخناء إنى عاهدت الله لأجاهدنك بيدى ولسانى وقلبى ، فأما يدى فما أجد عليك عونا .. وأما لسانى فقد تسمع .. وأما قلبى فالله أعلم بما فيه .

فقال طاغية ثقيف :

ـ على بمسال الحديد ـ الحديد المصهور ـ .

فجعلت تدخل فيما بين الظفر واللحم وهو ساكت.

فقال بعض جلساء الحجاج :

ـ ما أصبره .

قال حطيط :

ـ أوما علمت أن الله عز وجل يفرغ الصبر إفراغا ؟

فأمر الحجاج بحطيط الحرامى فأدرج فى عباء وضرب بالخشب حتى قتل.

وبعث الحجاج إلى عبد الرحمن بن أبى ليلى فلما دخل على الحجاج قال:

ـ يا أهل الشام : إن أردتم رجلاً يشتم أمير المؤمنين عثمان فدونكم هذا .

يقول الأعمش :

رأيت عبد الرحمن بن أبى ليلى وقد ضربه الحجاج ووقفه على باب المسجد فجعلوا يقولون له:

ـ العن الكذابين .

فيقول :

ـ لعن الله الكذابين .

ويسكت .

ثم يبتدئ فيقول :

ـ على بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن أبى عبيد .

فجعلت أعرف حين سكت ثم ابتدأ أنه لا يريدهم .

وقال أبو بكر بن عياش :

رأيت عبد الرحمن بن أبى ليلى على المصطبة وكأن ظهره مسح أسود لضرب الحجاج إياه وهم يقولون له :

ـ العن الكذابين .

فيقول :

ـ لعن الله الكذابين .

ثم يسكت ، ويقول :

ـ على بن أبى طالب ، وابن الزبير ، والمختار بن أبى عبيد .

وأهل الشام حوله كأنهم حمير ما يعقلون ما يقول .

وأتى الحجاج بالفضيل بن برزوان العدوانى فقال له :

ـ يا فضيل : ألم أكرمك ؟

قال الفضيل :

ـ بل أهنتنى .

وكان قد ولاه حين قدم الحجاج العراق عملاً فهرب .

قال الحجاج بن يوسف :

- ألم أقربك ؟

قال الفضيل :

- بل باعدتنى .

قال طاغية ثقيف :

- والله لأقتلنك .

قال الفضيل بن مرزوان .

- بغير جرم ولا فساد فى الأرض ؟ كل ذلك قد أتيت بمعصيتى .

فقتله .

وأتى بابن القرية فقال:

- ائذن لى فى الكلام .

فقال الحجاج .

- لا تكلمنى .

قال ابن القرية :

- ائذن لى جعلت فداك فى ثلاث كلمات كالدهم الواقفات .

فأمر الحجاج به فضربت عنقه .

وأتى الحجاج بكميل بن زياد فقال له :

يا عبد النخع كنت ممن سار إلى أمير المؤمنين عثمان فعفى عنك معاوية ، ثم عفى عنك أمير المؤمنين عبد الملك ، فأقمت فى بيتك مقعدا لا تشهد للمسلمين جمعة ولا جماعة حتى إذا خلع حوَّاك كندة خرجت فقعدت على المنبر ثم قلت :

- إن شر بيتين تحت أديم السماء الحكمين : الحكم بن أبى العاص ، والحكم بن أبى عقيل .

ثم أمر به فضربت عنقه .. وهو شيخ كبير .

وملأ الحجاج السجون بأصحاب ابن الأشعث ، وكان طاغية ثقيف يطعم أهل

السجن دقيق الشعير والرماد مخلوطين .

وطلب الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير ولكن ابن جبير كان يفر من بلد إلى بلد.

وقيل :

لما أسرف الحجاج فى قتل أسارى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فكتب إليه :

أما بعد :

فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذيرك فى الأموال ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء فى الخطأ الدية وفى العمد القود ، وفى الأموال ردها إلى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل ، فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة ، فلا يؤنسنك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وظن بأمير المؤمنين كل شىء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا .

الحجاج بن يوسف وعبد الله بن هانىء :

قال شيطان ثقيف يوما لعبد الله بن هانئ وكلف من أود - أدد - حى من اليمن ، وكان شريفا فى قومه ، وقد شهد مع الحجاج بن يوسف مشاهده كلها ، وشهد معه تحريق البيت الحرام فى عهد عبد الله بن الزبير ، وكان من أنصار سفاح ثقيف ومن شيعته :

- والله ما كافأناك بعد .

ثم أرسل شيطان ثقيف إلى أسماء بن خارجة - كان من فزارة - :

أن زوج عبد الله بن هانئ ابنتك .

فقال أسماء بن خارجة :

- لا والله ولا كرامة .

فدعا له بالسياط ، فقال :

ـ أنا أزوجه .

فزوجه .

ثم بعث سفاح ثقيف إلى سعيد بن قيس الهمدانى رئيس اليمامة .

أن زوج عبد الله بن هانئ ابنتك .

قال سعيد بن قيس الهمدانى :

ـ ومن أود ؟ والله لا أزوجه ولا كرامة .

قال سفاح ثقيف :

ـ هاتوا السيف

فقال سعيد بن قيس الهمدانى :

ـ دعنى حتى أشاور أهلى .

فشاورهم فقالوا له :

ـ زوجه لا يقتلك هذا الفاسق .

فزوج عبد الله بن هانئ ابنته.

فقال الحجاج بن يوسف لعبد الله بن هانئ :

ـ يا عبد الله قد زوجتك بنت سيد بنى فزارة وابنة سيد همدان وعظيم كهلان وما أود هنالك .

فقال عبد الله بن هانئ :

ـ لا تقل أصلح الله الأمير ذلك ، فإن لنا مناقب ما هى لأحد من العرب .

فتساءل شيطان ثقيف :

ـ وما هى هذه المناقب ؟

قال عبد الله بن هانئ :

ـ ما سب أمير المؤمنين عثمان فى ناد لنا قط .

قال الحجاج بن يوسف :

- هذه والله منقبة .

قال عبد الله بن هانئ :

- وشهد منا صفين - وقعة صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا ، وما شهدها مع أبى تراب - يعنى أمير المؤمنين على بن أبى طالب - منا إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امرء سوء.

قال شيطان ثقيف :

- وهذه والله منقبة .

قال عبد الله بن هانئ :

- وما منا أحد تزوج امرأة تحب أبا تراب ولا تتولاه .

قال سفاح ثقيف :

- وهذه والله منقبة .

قال عبد الله بن هانئ :

- وما منا امرأة إلا نذرت إن قتل الحسين أن تنحر عشر جزائر - الجزور : الجمل - لها ففعلت .

قال الحجاج بن يوسف :

- وهذه والله منقبة .

قال عبد الله بن هانئ :

- وما منا رجل عرض عليه شتم أبى تراب ولعنه إلا فعل .

وأردف عبد الله بن هانئ :

- وأزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأمهما فاطمة .

قال شيطان ثقيف :

- وهذه والله منقبة .

قال عبد الله بن هانئ :

- وما أحد من العرب له من الملاحة والصباحة ما لنا .

وضحك ، وكان دميما شديد الأدمة ـ السواد ـ مجدورًا فى رأسه أعجر ، مائل الشدق ، أحول . قبيح الوجه .

*** من يشهد لك ؟**

أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهما فقال أحدهما:

ـ إن لى عندك يدا.

فتساءل الحجاج :

ـ وما هى ؟

قال الأسير :

ـ ذكر ابن الأشعث يوما أمك فرددت عليه .

فقال الحجاج :

ـ ومن يشهد لك ؟

قال الأسير :

ـ صاحبى هذا .

فسأل الحجاج الأسير الثانى فقال :

ـ نعم .

فقال له الحجاج :

ـ ما منعك أن تفعل كما فعل ؟

قال الأسير الثانى :

ـ بغضك ـ كرهك ـ .

فقال الحجاج :

ـ أطلقوا هذا لصدقه ، وهذا لفعله .

*** موتوا بغيظكم :**

ملأ طاغية ثقيف سجون العراق بأصحاب ابن الأشعث بعد أن روى أرض الكوفة بدمائهم فطفحت الصدور حقدا، وذات يوم علم أهل الكوفة أن الحجاج سوف يقف على المنبر ويخطبهم فخف رجل ومعه مسمار وكتب على المنبر قوله تعالى : ﴿ **قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** ﴾ [سورة الزمر الآية:٨].

فلما جلس الحجاج على المنبر وقعت عيناه عليها ، فحفر بمسمار أسفل منها ﴿**قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ١١٩] .

أى : أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا .

*** وفـــاء :**

ظفر سفاح ثقيف بقوم ممن خرجوا عليه ، فأمر بهم فضربت أعناقهم فقد كان الحجاج لا يصبر على سفك الدماء لما كان منه فى بدء أمره - عقب ولاته حيث رضع دم جدي أسود ، ودم تيس أسود ، ودم سالخ ، وأطلوا بدم الثعبان الأسود وجهه - وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ولا سبق إليها سواه .

واقيمت صلاة المغرب وقد بقى من المتمردين على شيطان ثقيف رجل واحد، فقال الحجاج لقتيبة بن مسلم :

- انصرف به معك حتى تغدو به على.

فخرج قتيبة بن مسلم والرجل معه ، فلما كانا ببعض الطريق قال الرجل لقتيبة:

- هل لك فى خير ؟

فتساءل قتيبة بن مسلم :

- وما ذاك ؟

قال الرجل :

- إنى والله ما خرجت على المسلمين ولا استحللت قتالهم ولكن ابتليت بما ترى ، وعندى ودائع وأموال فهل لك في أن تخلى عنى وتأذن لى حتى آتى أهلى وأرد كل ذى

حق حقه وأوصى ، ولك علي أن أرجع حتي أضع يدى فى يدك .

يقول قتيبة بن مسلم :

- فعجبت وتضاحكت لقوله .

ومضيا هنيهة ، ثم أعاد الرجل على قتيبة بن مسلم القول وأردف :

- إني أعاهد الله على أن أعود إليك .

يقول قتيبة بن مسلم :

- ما ملكت نفسى حتى قلت له : اذهب .

فلما توارى الرجل عن بصر قتيبة بن مسلم أسقط فى يده وقال لنفسه :

- ماذا صنعت بنفسى ؟

وأتى قتيبة بن مسلم أهله مهموما مغموما ، فسألوه عن شأنه ، فأخبرهم الخبر فقالوا :

- لقد اجترأت على الحجاج .

وباتوا بأطول ليلة .

ولما كان أوان الغداة إذ الباب يطرق ، فخرج قتيبة بن مسلم فإذا هو بالرجل فقال فى لهفة :

- أرجعت ؟

قال الرجل :

- سبحان الله ، جعلت لك عهد الله على فأخونك ولا أرجع ؟

ولما دخل قتيبة بن مسلم على الحجاج بن يوسف سأله :

- ياقتيبة : أين أسيرك ؟

قال قتيبة بن مسلم :

- أصلح الله الأمير ، إنه بالباب ، وقد اتفق لى معه قصة عجيبة .

فتساءل شيطان ثقيف :

ـ وما هى ؟ .

فحدثه قتيبة الحديث .

فأذن الحجاج بن يوسف للرجل فدخل ثم سأل قتيبة بن مسلم:

ـ أتحب أن أهبه لك ؟

قال قتيبة بن مسلم :

ـ نعم.

قال شيطان ثقيف :

ـ هو لك ، فانصرف به معك .

فلما خرج قتيبة بن مسلم قال الرجل :

ـ خذ أى طريق شئت.

فرفع الرجل بصره إلى السماء وقال:

ـ لك الحمد يارب .

وما كلم قتيبة بن مسلم ولا قال له :

ـ أحسنت ولا أسأت.

فقال قتيبة بن مسلم فى نفسه :

ـ مجنون والله

وبعد ثلاثة أيام جاء الرجل قتيبة بن مسلم وقال له :

ـ جزاك الله خيرًا ، أما والله ما ذهب عنى ما صنعت ، ولكن كرهت أن أشرك مع حمد الله حمد أحد .

*** الحجاج بن يوسف وقاتل الصحابى الجليل عمار بن ياسر :**

ذات ضحى كان الحجاج جالسا على سريره فاقترب منه حاجبه وهمس فى أذنه

بكلمات مقتضبة فهب الحجاج واقفا وتساءل :

ـ أين هو ؟

فقال الحاجب :

ـ بالباب يا سيدي .

فقال طاغية ثقيف :

ـ دعه يدخل .

فلما دخل أبو الغاربة على الحجاج أكرمه وقال له :

ـ أنت قتلت ابن سمية ـ يعنى عمارا ـ ؟

قال أبو الغاربة :

ـ نعم .

فنظر الحجاج بن يوسف حوله وقال للحاضرين :

ـ من سره أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذى قتل ابن سمية ثم سأله أبو الغاربة حاجته فلم يجبه إليها فقال:

ـ نوطىء لهم الدنيا ولا يعطوننا منها ويزعم أنى عظيم الباع يوم القيامة؟

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أجل والله من كان ضرسه مثل أحد ـ جبل أحد ـ وفخذه مثل جبل ورقان ومجلسه مثل المدينة والربذة إنه لعظيم الباع يوم القيامة ، والله لو أن عمارا قتله أهل الأرض جميعا ـ كلهم ـ لدخلوا كلهم النار .

*** الحجاج بن يوسف وجحدر بن مالك :**

كان جحدر بن مالك رجلاً من بنى حنيفة وكان فتاكا بأرض اليمامة ، فلما علم طاغية ثقيف بأمره بعث إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه والضرب على يده، فما زال نائبها فى طلب جحدر بن مالك حتى أسره وبعث به إلى الحجاج فقال له:

ـ ما حملك على ما كنت تصنعه ؟

قال جحدر بن مالك :

ـ جراءة الجنان وجفاء السلطان ، وكلب الزمان ، ولو اختبرنى الأمير لوجدنى من صالح الأعوان ، وشهم الفرسان ، ولوجدنى من أصلح رعيته ، وذلك أنى ما لقيت فارسا قط إلا كنت عليه فى نفسى مقتدرا .

فقال طاغية ثقيف :

ـ إنا قاذفوك فى حائر ـ الحائر : البستان والمكان المطمئن من الأرض ـ فيه أسد عاقر فإن قتلك كفانا مؤنتك ، وإن قتلته خلينا سبيلك .

ثم أودع الحجاج جحدر بن مالك السجن مقيدا يده اليمنى إلى عنقه .

وكتب الحجاج إلى نائبه بكسكر أن يبعث له بأسد عظيم ضار .

فأنشد جحدر بن مالك هذه الأبيات يتحزن فيها على امرأته سليمى أم عمرو:

أليس الليـل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك بنـا تدانــى ؟

بلى وترى الـهلال كما نراه ويعلوها النهار إذا علانى

إذا جـاوزتـما نخـلات نجـد وأودية اليمامة فانعيانــى

وقولى : جحدر أمسى رهينا بحاذر وقع مصقول يمانى

مصقول يمانى : سيف بتار صارم .

فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام ، ثم أبرز إلى البستان ، وأمر بجحدر فأخرج فى قيوده ويده اليمنى مغلولة إلى عنقه بحالها، وأعطى سيفا فى يده اليسرى وخلي بينه وبين الأسد.

وجلس الحجاج وأصحابه فى منظرة ، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول :

ليث وليث فى مجال ضنك كلاهما ذو أنف ومحـــك

وشدة فى نفـــسه وفتـــك إن يكشف الله قناع الشك

فهو أحق منزل بترك

فلما نظر إليه الأسد زأر زأرة شديدة وتمطى وأقبل نحوه ، فلما صار منه على قدر

رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة خالط ذباب السيف لهواته فخر الأسد كأنه خيمة صرعتها الريح من شدة الضربة، وسقط جحدر بن قيس من شدة وثبة الأسد وشدة موضع القيود عليه ، فكبر الحجاج وكبر أصحابه.

فقال جحدر :

يا جمل إنك لو رأيت كريهتى ... فى يوم هول مسدف وعجاج
وتقدمى لليث أرسف موثقا ... كيما أساوره على الإخراج
شثن براثنه كأن نيوبه ... زرق المعاول أو شباة زجاج
يسمو بناظرتين تحسب فيهما ... لهبا أحدهما شعاع سراج
وكأنما خبطت عليه عباءة ... برقاء أو خرقا من الديباج
لعلمت أنى ذو حفاظ ماجد ... من نسل أقوام ذوى أبراج

فأقبل الحجاج بن يوسف نحوه وخيره إن شاء أقام عنده ، وإن شاء انطلق إلى بلده، فاختار جحدر بن مالك المقام عند الحجاج فأحسن جائزته وأعطاه أموالاً.

*** لماذا لم تتركه يغرق ؟**

ذات يوم كان الحر شديدا فأراد الحجاج بن يوسف أن يطفئ وهج جسده فمشى إلى نهر دجلة الذى كان قريبا من قصره ، فلما نزل جرفه الموج وكان لا يعرف السباحة ، ولما أوشك على الغرق أخذ يصيح مستنجداً :

ـ الغوث .. الغوث .

فأقبل الناس ، ولما عرفوه لم يتقدم أحد لنجدته وقالوا :

ـ دعوه لعله يغرق فنستريح من شره .

كانوا يحبون الموت ولا يطيقون سماع اسم الحجاج ، وكانوا يقولون :

ـ لو كان لفرعون أخ لكان الحجاج بن يوسف الثقفى .

لقد كان حاكما ظالما لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم تبق إلا معصية واحدة

وكانت بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها.

وكان أهل العراق يتمنون موته العاجل.

وهم رجل أن يثب إلى نهر دجلة لينقذ الحجاج من الغرق ، فأمسك به الناس وضربوه ، ولكن الرجل غافلهم وقفز إلى الماء وجذب الحجاج إلى شاطئ دجلة.

فتساءل الناس :

ـ لِمَ فعلت هذا يا عدو الله ؟ لِمَ لَمْ تدعه يغرق ؟

قال الرجل :

ـ لو تركناه يموت غرقا لدخل الجنة ، ألم يخبرنا رسول الله ﷺ أن الغرق شهادة ؟

*** على الحجاج لعنة الله :**

على الرغم أن الحجاج بن يوسف كان يعرف أن أهل العراق يكنون له بغضا وحقدا وكرها إلا أنه كان يحب أن يسمع ذلك بأذنيه ، خرج يوما متنكرا مع بعض حاشيته وقال لغلام له :

ـ تعال نتنكر وننظر مالنا عند الناس .

وخرجا فمرا على المطلب غلام أبى لهب فقالا :

ـ يا هذا أى شيء خبر الحجاج ؟

قال المطلب :

ـ على الحجاج لعنة الله .

فتساءلا :

ـ فمتى يخرج ؟

قال غلام أبى لهب :

ـ أخرج الله روحه من بين جنبيه ، ما يدرينى ؟

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أتعرفنى ؟

قال المطلب :

ـ لا .

قال طاغية ثقيف :

ـ أنا الحجاج بن يوسف .

فقال المطلب :

ـ أتعرفنى أنت ؟

قال الحجاج :

ـ لا .

قال المطلب :

ـ أنا المطلب غلام أبى لهب ، معروف أصرع فى كل شهر ثلاثة أيام أولها اليوم فتبسم الحجاج ومضى .

*** هذا يوم صرعى :**

ومر الحجاج وغلامه ببستانى يسقى حائطه ـ بستانه أو حديقته ـ فقالا :

ـ كيف حالكم مع الحجاج ؟

فقال البستانى:

ـ لعنه الله المبير المبيد ـ المبيد : الذى يحصد الأرواح حصدا ـ الحقود ، عجل الله الإنتقام منه .

فتساءل الحجاج :

ـ أتعرفنى ؟

قال البستانى :

ـ لا .

قال طاغية ثقيف :

ـ أنا الحجاج .

فلما رأى البستانى أن روحه قد نزعت من جسده رفع عصا كانت معه وقال :

ـ أتعرفنى ؟

قال الحجاج :

ـ لا .

قال البستانى :

ـ أنا أبو ثور المجنون وهذا يوم صرعى .

وأزبد وأرغى وهاج وأراد أن يضرب رأسه بالعصا فضحك الحجاج وانصرف هو وغلامه .

*** الحجاج وأم علقمة الخارجية :**

الخوارج هم الذين خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان أثناء الفتنة .

دعا الحجاج بن يوسف أم علقمة الخارجية وقال لها :

ـ لقد خبطت بسيفك يا عدوة الله خبط عشواء .

فقالت أم علقمة :

ـ لقد خفت الله خوفا صيرك فى عينى أصغر من ذباب .

وكانت ناكسة الرأس فقال له طاغية ثقيف :

ـ ارفعى رأسك وانظرى إلىَّ .

فقالت أم علقمة الخارجية .

ـ أكره أن أنظر إلى من يكرهه الله .

فنظر الحجاج إلى أهل الشام وقال لهم :

ـ يا أهل الشام : ما تقولون فى دم هذه ؟

قالوا :

ـ حلال ـ أباحوا قتلها ـ

فقالت لهم أم علقمة الخارجية :

ـ لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك حين استشارهم فى أمر موسى عليه السلام ـ فقالوا : أرجه وأخاه : هارون ـ عليه السلام ـ .

فأمر طاغية ثقيف بقتلها .

*** شيطان ثقيف :**

بينما كان الحجاج بن يوسف جالسا فى منظرته وعنده أناس من وجوه وأشراف أهل العراق أدخل عليه طفل من الخوارج فلم يعبأ بالحجاج وراح ينظر إلى المنظرة وما فيها من العجائب والتحف وتلفت يمينا ويسارا ثم قرأ قوله تعالى :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [سورة الشعراء الآية: ١٢٨ ـ ١٢٩] .

كان الحجاج متكئا فاستوى فى مقعده وقال:

ـ يا غلام : إنى أرى لك عقلا وذهنا ، أحفظت القرآن ؟

قال الطفل :

ـ أو خفت عليه من الضياع ؟ ألم يتكفل العزيز الحكيم بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ؟ [سورة الحجر الآية : ٩] .

فسكت طاغية ثقيف ثم قال :

ـ أفجمعت القرآن ؟

فتساءل الغلام :

ـ أو كان مُفرقًا حتى أجمعه ؟

قال طاغية ثقيف :

ـ أفأحكمت القرآن ؟

فعاد الغلام يتساءل :

ـ أليس العليم الخبير أنزله محكما ؟

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أفاستظهرت القرآن ؟ ـ حفظت القرآن عن ظهر قلب ـ .

قال الغلام :

ـ معاذ الله أن أجعل القرآن وراء ظهرى.

فلما رأى الحاضرون الغلام يحاور ويناور ويجادل الأمير قالوا له:

ـ يا أبا محمد إلى متى تمد له حبل حلمك وصبرك ؟

قال الحجاج للغلام :

ـ ويلك قاتلك الله ماذا تقول ؟

قال الغلام :

ـ الويل ـ واد فى جهنم ـ لك ولقومكم قل : أوعيت القرآن فى صدرك ؟

كظم أبو محمد غيظه وقال من بين أسنانه :

ـ اقرأ شيئا من القرآن .

قال الغلام :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [سورة النصر الآية: ١] ورأيت الناس ـ **يخرجون من دين الله** ـ **أفواجا** .

فصاح الحجاج بن يوسف :

ـ ويحك إنهم يدخلون .

قال الغلام :

ـ كانوا يدخلون فى دين الله أفواجا ، أما اليوم صاروا يخرجون .

فتساءل أبو محمد وهو يتظاهر بالهدوء :

ـ ولِمَ يخرجون اليوم ؟

قال الغلام معجزة عصره :

ـ لسوء فعلك بهم .

فغضب الحجاج بن يوسف وصاح في وجه الغلام :

ـ ويلك يا غلام . . ألا تعرف من تخاطب ؟

قال الغلام فى ثبات وهدوء :

ـ نعم أعرف أنى أخاطب شيطان ثقيف . . الحجاج .

فجز الحجاج على نواجذه وتساءل:

ـ ويلك . . من رباك ؟

قال الغلام :

ـ الذى زرعنى .

قال أبو محمد:

ـ فمن أمك ؟

قال الغلام :

ـ التى ولدتنى .

فقال طاغية ثقيف :

ـ فأين ولدت ؟

قال الغلام :

ـ فى بعض الفلوات .

قال أبو محمد :

ـ فأين نشأت ؟

قال الغلام :

ـ فى بعض البرارى .

فقال طاغية ثقيف :

ـ أمجنون أنت فأعالجك ؟

قال الغلام :

ـ لو كنت مجنونا لما وصلت إليك ووقفت بين يديك كأننى ممن يرجون فضلك أو يخاف عقابك .

فتساءل الحجاج :

ـ فما تقول فى أمير المؤمنين ـ عبد الملك بن مروان ـ ؟

قال الغلام :

ـ رحم الله أبا الحسن ـ يعنى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وأسكنه فسيح جناته .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ ليس هذا عنيت ـ قصدت ـ إنما أعنى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .

قال الغلام :

ـ على الفاسق الفاجر لعنة الله ، لقد أخطأ خطيئة ملأت ما بين السماء والأرض .

قال أبو محمد :

ـ ما هى هذه الخطيئة ؟

قال الغلام :

ـ استعماله إياك على رعيته فجعلك حاكما على أهل العراق تستبيح أموالهم وتستحل دماءهم .

التفت أبو محمد نحو جلسائه وسألهم :

ـ ما تشيرون فى هذا الغلام ؟

قالوا :

ـ اسفك دمه فقد خلع ثوب الطاعة وفارق الجماعة .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ لقد أشرتم نصفا ـ النصف : العدل ـ .

فقال الغلام :

ـ لم ينطقوا حقا ولم يعدلوا .

فتساءل الحجاج :

ـ لم ؟

قال الغلام :

ـ لأنهم أقاموا عليك الحجة بين يدى الله ملك الجبارين مذل المستكبرين .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ هذب ألفاظك وقصر لسانك فإنى أخاف عليك بادرة الأمر.

ثم تبسم أبو محمد وقال :

ـ وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم.

قال الغلام :

ـ لا حاجة لى بها . . اللهم بيض وجهك ، وأنر بيتك ، وأعلى قدمك ، واجعل الطير يأكل من خير رأسك يا حجاج .

فصرخ طاغية ثقيف فى وجه الغلام ؛ وقال:

ـ اغرب عن وجهى أيها الغلام .

فتعجب الحاضرون وقالوا :

ـ أيها الأمير لقد صبرت عليه وهو ينهال عليك بأرذل الكلمات فهل تسخط عليه وتغضب منه لما امتدحك وقال لك أجمل العبارات ؟

قال الحجاج :

ـ هل تظنون أنه دعا لى ؟ يا علماء اللغة إن هذا الفتي عندما دفعتم إليه المال دعا على ولم يدعو لى.

قال الحاضرون :

ـ كيف أيها الأمير ؟

قال داهية ثقيف :

ـ قال : اللهم بيض وجهك ، أتدرون بم ؟. بالبرص ، أتدرون عندما قال : وأنر بيتك بم ؟ ، يقصد بذلك النار تحرق البيت ، أتدرون عندما قال : وأعلى قدمك .. بم ؟ يقصد بذلك أن أصلب إلى شجرة فترتفع قدمى عن الأرض ، وأتدرون عندما قال: واجعل الطير يأكل من خير رأسك بم ؟ . يقصد بذلك يأكل الطير من رأسى بعد أن أصلب على الشجرة .

فتعجب الحاضرون وقبل أن يسألوه قال للغلام :

ـ ما تقول فيما قلت ؟

قال الغلام معجزة عصره :

ـ قاتلك الله .. لقد فهمت ما أردت قوله .

فامتلأ صدر الحجاج غضبا على غضب وأمر بضرب عنق الغلام فقال:

ـ الحمد لله هنيئا لى بالشهادة أن تدركنى السعادة والله إن القتل في سبيل الله أحب إلى من أن أرجع إلى أهلى صفر اليدين .

فعجب أبو محمد .. ثم قال :

ـ ياغلام . . قد أمرنا لك بجائزة خمسين ألف درهم وعفونا عنك لحداثة سنك وصفاء ذهنك وحسن توكلك على الله، وإياك والجرأة على أولياء الأمر ـ الولاة والحكام ـ فتقع مع من لا يعفو عنك .

ولما هم الغلام بالخروج من قصر الحجاج قال بصوت لم يسمعه غيره :

والله ما رأيت أشجع منه قلبا ولا أفصح منه لسانا ، ولعمرى ما وجدت مثله قط، وعسى هو لا يجد مثلى ، فإن عاش هذا الغلام ليكونن أعجوبة ومعجزة عصره.

*** صدقت .**

سأل سفاح ثقيف يوما جلساءه:

ـ ما أذهب الأشياء للإعياء ؟

قال قائل :

ـ أكل التمر .

وقال آخر :

ـ الحمام .

وقال قائل :

ـ التمريخ .

وقال رجل :

أذهب شىء للإعياء فقد الحاجة .

فقال الحجاج :

ـ صدقت .

*** أصدق الله يصدقك :**

كان سعيد بن عمرو فى حبس فدعاه سفاح ثقيف ليلا ، فلما جاء قال له الحجاج:

ـ يا سعيد كيف أنت إن أطلقتك واستعملتك ؟

قال سعيد بن عمرو :

ـ أما الإطلاق فيسرنى ، وأما العمل فلا حاجة لى به فهو أصارنى إلى الحبس .

قال شيطان ثقيف :

ـ ذاك أنك لم تصدق الله ، فأصدق الله يصدقك .

*** عتاب :**

كتب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف فى أمر استشاره فيه واستكتمه إياه ، فانتشر وبلغ عبد الملك ذلك ، فكتب أمير المؤمنين إلى سفاح ثقيف كتابا عاتبه فيه ، وتمثل بهذين البيتين فى كتابه :

ألم تر أن وشاة الرجـا ل لا يتركون أديما صحيحا ؟

فلا تفش سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحـا ؟

*** ما دينك ؟**

أتى شيطان ثقيف برجلين من الخوارج فقال لأحدهما :

ـ ما دينك ؟

قال :

ـ دين إبراهيم حنيف مسلم ، وإنى أحذرك يا حجاج يوما لا آخر له .

فأمر به فقتل .

وسأل سفاح ثقيف الرجل الثانى :

ـ ما دينك ؟

قال الرجل :

ـ دين يوسف بن الحكم ـ يعنى دين أبى الحجاج ـ .

فقال شيطان ثقيف :

ـ لقد توليت بحب الله ورسوله .

وخلى سبيله .

ولما خرج الرجل قال :

أرى الحجاج يقتل كــل بر ويترك من على دين الحمار
فباين القلعم المجلوب حيفا دع الحجاج وانج إلى وبــار

القلعم : الشيخ المُسِنُّ .

*** فى واسط :**

بنى الحجاج بن يوسف الخضراء وكان يشرف منها وغيرها فإذا رأى رجلا يطيل الصلاة قال: ـ هذا حرورى ـ الحرورية ، الأزارقة . . طوائف من الخوارج ـ فيحبسه ويقتله .

وكان لا يرى رجلاً يبول أو يحدث فى مدينة واسط إلا عاقبه.

فقال بعض الشعراء :

إذا خرجنا من مدينة واسط خرينا وصلينا بغير حساب

*** الشيطان يبكى :**

كتب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يوما :

أن ابعث إلى برأس أسلم بن عبد البكرى لما بلغنى عنه .

فأحضره شيطان ثقيف .

فقال أسلم بن عبد البكرى :

ـ أيها الأمير : أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [سورة الحجرات الآية : ٦] ، وما بلغه باطل ، وإنى أعول أربعة وعشرين امرأة مالهن كاسب غيرى ، وهن بالباب .

فأمر الحجاج بن يوسف بإحضارهن ، فلما حضرن جعلت هذه تقول:

ـ أنا خالته .

وهذه تقول :

ـ أنا عمته .

وهذه تقول :

ـ أنا أخته .

وهذه تقول :

ـ أنا زوجته .

وهذه تقول :

ـ أنا ابنته .

وتقدمت إلى الحجاج جارية فوق الثمان ودون العاشرة فسألها أبو محمد:

ـ من أنت ؟

قالت الجارية :

ـ أنا ابنته .

ثم قالت :

أصلح الله الأمير :

وجثت على ركبتيها وقالت:

أحجاج لم تشهد مقام بناته   وعماته يندبنه الليل أجمعا ؟
أحجاج كم تقتل به إن قتلته   ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا ؟
أحجاج من هذا يقوم مقامه   علينا فمهلاً إن تزدنا تضعضعا ؟
أحجاج إما أن تجود بنعمة   علينا وإما تقتلنا معا ؟

فبكى الحجاج بن يوسف وقال:

ـ والله لا أعنت عليكن ولا أزيدكن تضعضعا .

وكتب طاغية ثقيف إلى عبد الملك بن مروان وبما قالت هذه الجارية .

فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاق سراحه وحسن صلته، وبالإحسان إلي

هذه الجارية وتفقدها فى كل وقت.

*** الحمد لله الذى أبدلنى درهما بدينار :**

ذات ليلة حدث كلام بين الحجاج وامرأته أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهل بن عمرو القرشى أخى سهيل بن عمرو فطلقها الحجاج فقالت أم سلمة :

- عسى الله أن يبدلنى خيرا منك يا أبا محمد .

فقال الحجاج بن يوسف :

- من خير من أمير العراق ؟

وكانت أم سلمة ذات جمال، وعلم أمير المؤمنين عبد الملك بما كان بين الحجاج وأم سلمة ، فلما انقضت عدتها بعث إليها رسولاً ، فقالت لرسول أمير المؤمنين :

- إنى موافقة ولكن بشرط .

فقال رسول عبد الملك :

- وما هو شرطك ؟

قالت أم سلمة بنت عبد الرحمن :

- أن يكون الحجاج سائق البرذون الذى أركبه يوم زفافى .

فلما أخبر رسول أمير المؤمنين عبد الملك ضحك وقال:

- لها ذلك .

ويوم زفاف أم سلمة جاء برذون يقوده أبو محمد ، وركبت زوج أمير المؤمنين وقاد أمير العراق البرذون وفى منتصف الطريق ألقت أم سلمة درهما على الأرض وطلبت من الحجاج بن يوسف أن يتوقف . . ثم قالت له:

- سقط منى درهم على الأرض.

فنزل الحجاج وراح يبحث عن الدرهم ، فلم يجده ، فمد يده فى جيبه خلسة فخرجت بدينار .

فقال أبو محمد :

ـ إنه ليس درهما ولكنه دينار .

فنظرت إليه أم سلمة ورمته بنظرة ذات مغزى وقالت:

ـ الحمد لله الذى أبدلنى الدرهم بدينار .

*** الحجاج بن يوسف وليلى الأخيلية :**

إن سفاح ثقيف لم يكن يظهر لندمائه منه بشاشة ولا سماحة فى الخلق إلا في يوم دخلت عليه ليلى الأخيلية فقال لها :

ـ لقد بلغنى أنك مررت بقبر ثوبة بن الحمير وعدلت عنه فوالله ما وفيت له ، ولو كان هو بمكانك وأنت بمكانه ما عدل عنك .

فقالت ليلي الأخيلية :

ـ أصلح الله الأمير ، إن لى لعذرا.

فتساءل شيطان ثقيف :

ـ وما هو ؟

قالت ليلى الأخيلية :

ـ إنى سمعته وهو يقول :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   علـى وفـوقـى جنـدل وصفـائـح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا   إليها صدرى من جانب القبر صائح

وصفائح : وفوقى تربة وصفائح .

ـ وكان معى نسوة قد سمعن قوله ـ صوته ـ فكرهت أن أكذبه.

فاستحسن الحجاج بن يوسف قولها وقضى حوائجها ، وانبسط فى محادثتها ، فلم ير منه بشاشة وأريحية داخلته مثل ذلك اليوم.

*** لا يعلم الغيب إلا الله :**

دخل مُنَجِّم على الحجاج فاعتقله ، ثم أخذ طاغية ثقيف حصيات فعدهن ثم سأل

المنجم :

ـ كم فى يدى من حصاة ؟

فحسب المنجم ثم قال:

ـ كذا

فأصاب .

فأغفله الحجاج وأخذ حصيات لم يعدهن وقال للمنجم :

ـ كم فى يدى ؟

فحسب المنجم ثم قال :

ـ كذا .

فأخطأ .

ثم حسب فأخطأ .

ثم قال المنجم :

ـ أيها الأمير : أظنك لا تعرف عدد ما فى يدك؟

قال أبو محمد الثقفى :

ـ لا .

قال المنجم :

ـ فما الفرق بينهما؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ إن ذاك أحصيته فخرج عن حد الغيب ، فحسبت فأصبت ، وإن هذا لم تحصه ـ لم تعرف عددها ـ فصار غيبا **﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾** [سورة النمل الآية : ٦٥] .

تقول أم المؤمنين عائشة :

من زعم أن محمدا يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [خرجه مسلم] .

*** الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين :**

مات عبد الملك بن مروان سنة ست وثمانين من الهجرة ثم تولى ابنه الوليد بن عبد الملك وأقر أمير المؤمنين أبا محمد الثقفى أميرا على العراق.

*** حسن السياسة :**

كتب أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يأمره أن يكتب إليه بسيرته .

فكتب إليه .

إنى أيقظت رأيى ، وأنمت هواى ، فأدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت الحرب ـ الشجاع ـ الحازم فى أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسما ، وأعطيه حظا من لطيف عنايتي ونظرى ، وصرفت السيف إلى النطف ـ المتهم بعيب أو ريبة ـ المسىء والثواب إلى المحسن البرىء ، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الصواب .

فهل أيقظ شيطان ثقيف رأيه وأغمق عينى هواه ؟ إنه كان لا يصدر فى أفعاله إلا عن الهوى والغرض ، حتى لم يبق فى الناس من لم تصبه منه بائقة ، فهل آنس من الوليد بن عبد الملك مالم يأنس من أبيه فكتب ما كتب مما يخالف فعله ليتسديم له الرضى فلا يعزله أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ؟

تغدي الحجاج بن يوسف يوما مع أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فلما انقضى غداؤهما دعاه إلى شراب النبيذ ـ الخمر المحض فى هذا العصر ـ فقال الحجاج :

ـ يا أمير المؤمنين : الحلال ما أحللت ، ولكنى أنهى عنه ـ النبيذ ـ أهل العراق وأهل عملى ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨] .

العبد الصالح : شعيب ـ عليه السلام .

وأتى رجل من الخوارج أمير المؤمنين الوليد فسأله :

- ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟

فأثنى الرجل خيرا.

فقال الوليد بن عبد الملك :

- فعثمان ؟

فأثنى الرجل خيرا .

فقال أمير المؤمنين الوليد :

- فما تقول فى على ؟

فأثنى الرجل خيرا .

فذكر له الوليد بن عبد الملك الخلفاء واحدا واحدا ، فيثنى على كل خيرا بما يناسب حتى قيل له:

- فما تقول فى عبد الملك بن مروان ؟

فقال الخارجى :

- الآن جاءت المسألة ، ما أقول فى رجل الحجاج خطيئته من بعض خطاياه ؟

*** لا يأتى عليكم عام إلا وهو شر من الآخر :**

جاء أناس من أهل العراق إلى خادم رسول الله ﷺ فشكوا إليه ما يلقون من طاغية ثقيف ، فقال أنس بن مالك :

- اصبروا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

- « **لا يأتى عليكم عام إلا وهو شر من الآخر** » [رواه أبو نعيم فى الفتن] .

وقال عليه الصلاة والسلام :

-« **لا يأتى عليكم عام ولا يوم إلا والذى بعده شر منه حتي تلقوا ربكم** » [رواه البخارى ، والإمام أحمد ، والنسائى عن أنس] .

*** دار الرواية :**

كان للحجاج بن يوسف دور بدمشق منها دار الرواية بقرب قصر ابن أبى الحديد ،

فقد سمع أبو محمد الثقفى عبد الله بن عباس ، وروى عن أنس بن مالك وسمرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان ، وأبى بردة بن أبى موسى ، وروى عنه ثابت البنانى وحميد الطويل ، ومالك بن دينار ، وجواد بن مخلد ، وقتيبة بن مسلم ، وسعيد بن أبى عروبة .

*** المرأة ريحانة وليست بقهرمانة :**

وفد شيطان ثقيف على أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فوجده فى بعض نزهه، فاستقبله ولما رآه الحجاج ترجل له وقبل يده ، وجعل يمشى وعليه درع وكنانة وقوس عربية ، فقال له أمير المؤمنين :

ـ اركب يا أبا محمد .

فقال منافق ثقيف :

ـ دعنى يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد ، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى عنك .

فعزم الوليد بن عبد الملك على سفاح ثقيف حتى ركب ، ودخل أمير المؤمنين داره، وتفضل فى غلالة ، ثم أذن لمبير ثقيف فدخل عليه فى تلك الحالة ، وأطال الجلوس عنده ، وبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فسارت ـ همست فى أذن ـ أمير المؤمنين ومضت ، ثم عادت فسارته ثم انصرفت .

فقال الوليد للحجاج :

ـ أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد ؟

قال شيطان ثقيف :

ـ لا والله .

قال الوليد بن عبد الملك :

ـ بعثتها إلى ابنة عمى أم البنين بنت عبد العزيز تقول : ما مجالستك لهذا الأعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج فراعها ذلك وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق .

فقال الحجاج :

ـ يا أمير المؤمنين : دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ، ولا تطعهن فى غير أنفسهم، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن ، وإياك ومشاورتهن فى الأمور فإن رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ـ ضعف ـ واكفف عليهم من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأموال ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرك ، ولا تطل الجلوس معهن والخلوة بهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك .

ثم نهض الحجاج فخرج .

*** أسد على وفى الحروب نعامة :**

دخل الوليد بن عبد الملك على زوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ـ أخت عمر بن عبد العزيز ـ فأخبرها بمقولة الحجاج ، فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين : أحب أن تأمره غدا بالتسليم على .

فقال الوليد .

ـ افعل .

فلما غدا الحجاج على الوليد قال له :

ـ يا أبا محمد : سر إلى أم البنين فسلم عليها .

فقال شيطان ثقيف :

ـ أعفنى من ذلك يا أمير المؤمنين .

فقال الوليد بن عبد الملك :

ـ لابد من ذلك .

فمضى منافق ثقيف إلى أم البنين ، فحجبته طويلا ، ثم اذنت له فأقرته قائمًا ، ولم تأذن له بالجلوس ، ثم قالت :

ـ يا حجاج : أنت المُمْتَنّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه ما ابتلاك بهدم الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين، وأول مولود ـ للمهاجرين فى المدينة ـ فى الإسلام ، وأما ابن الأشعث فقد

والله وَالى عليك الهزائم ، حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت فى أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم وأنجاك كفاحهم ، وطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن وبعنه فى الأسواق فى أرزاق البعوث إليك ، ولولا ذلك لكنت أذل الناس من النقد .

وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتك، قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول:

أسد على وفى الحروب نعامة فزعاء تفزع من صغير الصافـر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

ثم قالت أم البنين لجواريها :

ـ أخرجنه عنى .

فدخل الوليد بن عبد الملك من فوره فسأل منافق ثقيف :

ـ يا أبا محمد : ما كنت فيه ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلى من ظهرها

فضحك أمير المؤمنين حتى فحص الأرض برجليه ـ ضرب الأرض برجليه ـ ثم قال :

ـ يا أبا محمد : إنها بنت عبد العزيز .

*** سَلِ الحجاج :**

قال أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك للغاز بن ربيعة :

ـ سل الحجاج فيما بينك وبينه : هل يجد فى نفسه مما أصاب من الدنيا شيئا؟

فسأله كما أمره .

فقال أبو محمد الثقفى :

ـ والله ما أحب أن لى لبنانُ ـ جبل ـ أو سبير ـ جبل ـ ذهبا أنفقه فى سبيل الله ، مكان ما أبلانى الله من الطاعة ، والله سبحانه ، تعالى أعلم.

*** الحجاج بن يوسف والطبيب :**

قال الحجاج بن يوسف لبعض الأطباء:

ـ صف لى صفة آخذ بها ولا أعدوها.

فقال طبيبه تذوق ـ تيا ذوق ـ :

لا تنكح من النساء إلا فتاة .

ولا تأكل من اللحم إلا فتيا .

ولا تأكل إلا المطبوخ حتى يتم نضجه .

ولا تشربن دواء إلا من علة .

ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها.

ولا تأكل طعاما إلا أجدت مضغه.

وكُلْ ما أحببت من الطعام ، ولا تشربن عليه، فإذا شربت فلا تأكل شيئا .

ولا تحبسن الغائط والبول .

وإذا أكلت بالنهار فنم ، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

*** أنت تخرجهم .**

قال شيطان ثقيف يوما لامرأة من الخوارج :

ـ أتقرأين القرآن ؟ . . أتقرأين من كتاب الله شيئا ؟

قالت:

ـ نعم.

فأومأ برأسه أن تقرأ .

فقرأت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ ﴾ يخرجون من ﴿ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [سورة النصر الآية ١ـ٢] .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ ويلك ، يدخلون .

قالت :

ـ قد دخلوا وأنت تخرجهم.

*** الحجاج من ثمود :**

خرج الحجاج بن يوسف ذات ضحى إلى ظهر الكوفة فى غب مطر ، فرأى رجلاً واقفا فى طرف (الحِيرة) فقال له :

ـ ما تقول في أميركم ؟

قال الرجل وكأن عقربا لدغته .

ـ الحجاج ؟

قال طاغية ثقيف :

ـ نعم .

قال الرجل :

ـ زعموا أنه من ثمود ، وكفى بسوء سيرته شرا ، فعليه لعنة الله .

فتساءل أبو محمد :

ـ أتعرفنى ؟

قال الرجل:

ـ لا .

قال شيطان ثقيف :

ـ أنا الحجاج .

فلما أدرك الرجل أنه وقع بين براثن الشيطان تساءل :

ـ أفتعرفنى أنت ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ لا .

قال الرجل:

ـ أصلح الله الأمير أنا مولى بنى فلان أجن فى كل شهر ثلاثة أيام فاليوم آخرهم وهو أشدهن .

فضحك الحجاج بن يوسف ، ولم يعرض له .

*** سيد الإنس بسيد الجن :**

ذات ليلة قال الحجاج ليحيى بن سعيد بن العاص وهو يمازحه :

ـ أخبرنى عبد الله بن هلال صديق إبليس أنك تشبه إبليس .

قال يحيى بن سعيد بن العاص :

ـ أصلح الله الأمير وما تنكر أن يشبه سيد الإنس بسيد الجن.

*** أدخل على رجلا يحدثنى :**

قال الحجاج بن يوسف ذات يوم لآذنه :

ـ أدخل على رجلا يحدثنى .

فرأى رجلا من الأزد طويل اللحية فأدخله على أبى محمد فقال الحجاج :

ـ هيه .

فقال الأزدى :

ـ هيه .

قال شيطان ثقيف :

ـ هيه ويلك .

قال الأزدى :

ـ هيه ويلك .

قال طاغية ثقيف :

ـ هيه ثكلتك أمك .

قال الأزدى :

ـ هيه ثكلتك أمك .

فقال الحجاج لآذنه :

ـ **أخرج هذا عنى وأدخل غيره .**

فأدخل عليه رجلا ، فقال له الحجاج :

ـ هيه .

قال الرجل :

ـ يسأل الأمير عما أحب .

قال شيطان ثقيف :

ـ أتقرأ القرآن ؟

قال الرجل :

ـ **قد علمنيه الله فإن حفظته حفظنى ، وإن تركته تركنى .**

قال الحجاج بن يوسف :

ـ أفتفرض ؟

قال الرجل :

ـ أفرض الصلب ، وأعرف اختلافهم فى الجد .

فتساءل الحجاج :

ـ فما تعرف من السنة ؟

قال الرجل :

ـ ما أقيم به دينى وأعلم الجاهل .

قال شيطان ثقيف :

ـ أتروى الشعر ؟

قال الرجل :

ـ أروى الشاهد والمثل.

قال الحجاج بن يوسف :

ـ قد عرفت المثل فما الشاهد؟

قال الرجل :

ـ النائرة ـ الفتنة ـ تكون بين القوم ، فيقول الرجل فيها فيكون قوله شاهدا .

فتساءل طاغية ثقيف :

ـ فما تعرف من النسب ؟

قال الرجل:

ـ الجماهير ، وأعرف موقعى من العرب.

قال الحجاج بن يوسف :

ـ أتحب المال ؟

قال الرجل :

ـ طلب العلم قبل طلب المال.

فأمر الحجاج بن يوسف له بأربعة آلاف درهم .

*** يا أبا عبد الله :**

سأل الحجاج بن يوسف يوما مطرف بن المغيرة الثقفى :

ـ هيه يا أبا عبد الله : إذا كانت لنا فأنت معنا ، وإذا كانت علينا فأنت علينا؟

قال مطرف بن المغيرة :

ـ كنا بين مفارق وخاذل ، لو صبرنا علي الحق كان خيرا لنا.

قال الحجاج بن يوسف الثقفى :

ـ صدقت ، إذن .

فاقترب مطرف من الحجاج فقال للحاضرين :

ـ يا أهل الشام هذا بقية الناس .

*** يا أهل العراق :**

خطب طاغية ثقيف أهل العراق فقال :

يا أهل العراق :

إن الشيطان استبطنكم ـ استبطن الأمر : وقف على دخيلته ـ فخالط اللحم والدم، والعصب والمسامع والأطراف ، ثم أفضى إلى الأسماخ والأمخاخ ، والأشباح والأرواح، ثم رتع فعشش ، ثم باض وأفرخ ، ثم دب ودرج ، فحشاكم نفاقا وشقاقا، وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ، ومؤتمنا تشاورونه وتستأمرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ؟ أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابى بالأهواز حيث منيتم المكر واجتمعتم على الغدر واتفقتم على الكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟ .

وأنا والله أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لوازا ، وتنهزمون سراعا ، ويوم (الزاوية) وما يوم (الزاوية) ؟ مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، ونكوس قلوبكم إذ وليتم كالإبل الشاردة عن أوطانها النوازع ، لا يسأل المرؤ منكم عن أخيه ، ولا يلوي الشيخ على بنيه ، حين عضكم السلاح ونخعتكم ـ أصابت منكم

النخاع - الرماح، ويوم دير الجماجم ، وما يوم دير الجماجم ؟ بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهمام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله .

يا أهل العراق .

يا أهل الكفر بعد الفجران ، والغدران بعد الخذلان ، والنزوة بعد النزوات ، إن بعثناكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون نعمة ، ولا تشكرون معروفا ، ما استخفكم ناكث ، ولا استغواكم غاوٍ ، ولا استنقذكم غاصٍ ، ولا استنصركم ظالم ، ولا استعضدكم خالع ، إلا لبيتم دعوته، وأجبتم صيحته ، ونفرتم إليه خفافا وثقالا وفرسانا ورجالا.

يا أهل العراق .

هل شغب شاغب أو نعب - نعب الغراب صاح ، وربما قالوا : نعب الديك استعارة - ناعب ، أو زفر زافر . . إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟

يا أهل العراق :

ألم تنفعكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ ألم يشدد الله عليكم وطأته ويذقكم حر سيفه وألم بأسه ومثلاته ؟

ثم التفت إلى أهل الشام وقال :

يا أهل الشام :

إنما أنا لكم كالظليم - ذكر النعام - الرامح عن فراخه ينفى عنها القذر ، ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب .

يا أهل الشام :

أنتم الجنة والبرد ، وأنتم البلاء والجند ، أنتم الأكباد والأنصار ، والشعار والدثار بكم يذب - يدفع - عن البيضة والحوزة ، وبكم ترمى كتائب الأعداء ، ويهزم من عاند وتولى.

*** والله لا تجتمع أنت وهو فى موضع واحد :**

قال طاغية ثقيف يوما :

ـ من كان له بلاء أعطيناه على قدره .

فقام رجل وقال :

ـ أعطنى ، فإنى قتلت الحسين بن على .

فتساءل الحجاج بن يوسف :

ـ وكيف قتلته ؟

قال الرجل :

ـ دسرته ـ الدسر : الطعن ـ بالرمح دسرا ، وهبرته ـ الهبرة : القطعة من اللحم لا عظم فيها ـ بالسيف هبرا ، وما أشركت فى قتله أحدا.

قال أبو محمد :

ـ اذهب ، فوالله لا تجتمع أنت وهو فى موضع واحد .

ولم يعطه شيئا .

*** سيعلم الظالم .**

حبس شيطان ثقيف رجلا ظلما ، فكتب إليه رقعة فيها :

قد مضى من بؤس أيامى ، ومن نعيمك أيام ، والموعد القيامة والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بينة .

وكتب فى آخر الرقعة :

ستعلم يا ظلوم إذا التقينـا   غدا عند الإله مَنِ الظلوم
أما والله إن الظلــم شـين   وما زال الملوم هو الظلوم
سينقطع التلذذ عن أنــاس   أدامـوه وينقطـع النعيــم

إلى ديان يوم الدين نقضى وعند الله تجتمع الخصــوم

*** صدق الله وكذب الشاعر :**

جاء رجل إلى الحجاج بن يوسف فقال :

ـ إن أخى خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمى فى الديوان ، ومنعت العطاء، وقد هدمت دارى فقال أبو محمد :

أما سمعت قول الشاعر :

حنانك من تجنى عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنب قريــبه ونجا المقارف صاحب الذنــب

فقال الرجل :

ـ أيها الأمير : إنى سمعت الله يقول غير هذا ، وقول الحق أصدق من هذا .

قال أبو محمد الثقفى :

ـ وما قال ؟

قال الرجل :

قال تبارك وتعالى : ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** ﴾ [سورة يوسف الآية : ٧٨ ـ ٧٩] .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ يا غلام : أعد اسمه فى الديوان ، وابن داره ، وأعطه عطاء ، ومر مناديا ينادى: صدق الله وكذب الشاعر .

*** خلوا سبيله :**

إن الحجاج خطب يوما فقال :

أيها الناس :

الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله .

فقام إليه رجل فقال له :

ـ ويحك يا حجاج ، ما أصفق وجهك وأقل حياءك ، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟

فقال طاغية ثقيف :

ـ ما الذى جرأك على ؟

قال الرجل :

ويحك يا حجاج ، أنت تجترئ علي الله ولا أجترئ أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئ على الله رب العالمين ؟

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ خلوا سبيله .

فأطلق .

*** كيف تلقى ربك ؟**

قال الحجاج لرجل من الخوارج :

ـ أجمعت القرآن ؟

قال الخارجى :

ـ أو كان متفرقا فأجمعه ؟

قال طاغية ثقيف :

ـ أتقرأه ظاهرا ؟

قال الخارجى :

ـ بل أقرأه وأنا أعرفه ، وأعلم أنه نور مبين .

قال شيطان ثقيف :

ـ أفتحفظه ؟

قال الخارجى :

ـ إن أحسنت قراءته فأنا أحفظه .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ ما تقول فى عبد الملك ؟

قال الخارجى :

ـ لعنه الله ولعنك معه .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ ويلك كيف تلقى ربك ؟

قال الخارجى :

ـ ألقاه بعملى ، وأرجو أن تلقاه بدمى .

*** جلساء أخيك فرعون خير من جلسائك :**

أتى الحجاج بن يوسف برجلين من الخوارج فسألهما عن قولهما فى أبى بكر وعمر وعثمان:

فأثنيا على الصديق وأبى حفص .

وقالا فى ذى النورين :

ـ أحسن أولاً ثم أفسد إحسانه.

قال طاغية ثقيف :

ـ فما تقولان فى معاوية ؟

قالا :

ـ كان طاغيا باغيا .

فعاد شيطان ثقيف يتساءل :

ـ فيزيد ؟

قالا :

ـ كان حمارا نهاقا .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ فما تقولان فىّ ؟

قالا :

ـ جعلت مع الله إلها آخر فأطعته وعصيت الله ـ يعنينان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ـ

فتكلم أهل الشام وكانوا حاضرين فقالوا :

ـ اسقنا دماءهما .

فقالا :

ـ كان جلساء أخيك خير من جلسائك .

فتساء الحجاج بن يوسف :

ـ وأين أخى ـ رحمه الله ـ محمد بن يوسف ؟

فقالا :

ـ يا فاسق : إنما عنينا فرعون حيث قال جلساؤه : ﴿ أرجئه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١١١] وهؤلاء يأمرونك بقتلنا ؟

فأمر بهما فقُتلا .

*** أنا المبير**

ذات ضحى نادى رجل من بنى عطارد :

ـ يا حجاج أخرج إلينا أكفاءنا من مضر .

فأمر الحجاج بن يوسف جندب بن عبد الرحمن أخا الجنيد ـ الجنيد بن محمد الجنيد تابعى من الفقهاء الصالحين ـ

فخرج إليه فقتله جندب ، فأعطاه سفاح ثقيف سلبه .

فاشترى يحيى بن الحكم فرس العطاردى بثلاثة عشر ألف درهم .

فقال شيطان ثقيف :

ـ لقد صدقت أسماء بنت الصديق ـ ذات النطاقين ـ حين قالت: فى ثقيف كذاب ومبير ، أنا المبير أبير ـ أهلك ـ المنافقين وأهل الشقاق .

*** الملائكة كانت تحارب معنا :**

أتى الحجاج بن يوسف برجل من بنى ضبيعة بعد أن ترك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث فسأله الحجاج :

ـ لم تركت صاحبك ؟

قال الرجل :

ـ قد علمت أنه على باطل .

قال سفاح ثقيف :

ـ كذبت ولكنك رأيت الملائكة أقبلت نحونا بجد وحد.

*** أحسن الحجاج فى القبول :**

وأراد سفاح ثقيف قتل من بقى فى ديوان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من أصحابه ، فقال له قتيبة بن مسلم :

ـ أصلح الله الأمير إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر بهم ، فأعطه ما يحب من العفو .

فبلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فقال:

ـ لله در قتيبة لقد أبلغ فى الموعظة ، ولقد أحسن الحجاج فى القبول .

*** الحجاج بن يوسف يلتمس محدثًا مؤنسا :**

سهر سفاح ثقيف ليلة بالكوفة فقال لحرسى :

ـ ائتنى بمحدث من المسجد .

فاعترض حرسى رجلا جسيما عظيما فقال له :

ـ أجب الأمير .

وانطلق به حتى أدخله إلى الحجاج بن يوسف ، فلم يسلم عليه ولا نطق حتى قال له شيطان ثقيف .

ـ إيه ما عندك ؟

فلم يتكلم .

فقال الحجاج لحرسى :

ـ أخرجه أخرج الله نفسك ، أمرتك أن تأتينى بمحدث فأتيتنى بمرعوب قد ذهب فؤاده .

وخرج الحجاج بن يوسف ومعه صرة دراهم إلى المسجد ، فجعل يناول الناس فيأخذونها ، حتي انتهى إلي شيخ فأعطاه فنبذها ، فأعادها الحجاج فردها الشيخ، فعل ذلك الحجاج ثلاثا ، فدنا منه الحجاج وقال:

ـ أنا الحجاج .

فأخذ الشيخ الدراهم .

ودخل شيطان ثقيف القصر وقال للحرسى :

ـ ألحقنى به .

فدخل الشيخ فسلم بلسان ذلق وقلب شديد ، فقال له شيطان ثقيف.

ـ ممن الرجل؟

قال الشيخ :

ـ من بنى شيبان .

قال سفاح ثقيف :

ـ ما اسمك ؟

قال الشيخ :

ـ سبرة بن الجعد .

قال الحجاج بن يوسف :

هل قرأت القرآن ؟

قال الشيخ :

ـ جمعته فى صدرى فإن عملت به فقد حفظته وإن لم أعملِ به ضيعته.

فتساءل شيطان ثقيف :

ـ فهل تفرض ؟

قال سبرة بن الجعد :

ـ إنى لأفرض الصلب وأعرف الاختلاف فى الجسد.

قال سفاح ثقيف :

ـ فهل تبصر الفقه ؟

قال سبرة بن الجعد :

ـ إنى لأبصر ما أقوم به أهلى وأرشد ذا العمى من قومى .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ فهل تعرف النجوم ؟

قال سبرة بن الجعد :

ـ إنى لأعرف منازل القمر ، وما أهتدى به فى السفر .

فتساءل شيطان ثقيف :

ـ فهل تروي الشعر ؟

قال سبرة بن الجعد :

ـ إنى لأروى المثل والشاهد .

قال سفاح ثقيف :

ـ المثل قد عرفناه فما الشاهد ؟

قال الشيخ :

ـ اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر ، فإني أروى ذلك الشاهد فاتخذ الحجاج سبرة بن الجعد الشيبانى سميرًا ، فلم يك يطلب شيئا من الحديث إلا وجد عنده منه علما .

*** الهجاء أشد من المديح :**

ولما قدم الحجاج بن يوسف على الخضراء بدمشق سأل أمير المؤمنين سفاح ثقيف :

ـ يا أبا محمد : أتحسن الهجاء ؟

قال الحجاج بن يوسف :

ـ يا أمير المؤمنين :هل رأيت صانعا إلا وهو على الفساد أقدر منه على الإصلاح؟.

قال الوليدين عبد الملك بن مروان :

ـ فما يمنعك من الهجاء ؟

قال شيطان ثقيف :

ـ إن الله عز وجل أعطانا عزا منعنا من أن نظلم .

فقال أمير المؤمنين :

ـ الهجاء أشد من المديح .

وحرك رأسه .

*** كم يكون هذا القتل ؟**

وبينما كان الحجاج عند أمير المؤمنين داخل عليهما خالد بن يزيد بن معاوية فقال عبد الملك :

ـ يا حجاج : إلى كم يكون هذا القتل ؟

قال شيطان ثقيف :

ـ إلى أن لا يبقى فى العراق رجل يزعم أن أباك يشرب الخمر.

*** أنا قاتل العبادلة :**

لما قتل سفاح ثقيف عبد الله بن حكيم المجاشعى صعد المنبر وقال :

أنا قاتل العبادلة : عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن مطيع ، وعبد الله بن صفوان، وعبد الله بن الجارود ، وعبد الله بن حكيم ، وعبد الله بن أنس ـ أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ـ

*** الشيطان وأهل السجون :**

مر الحجاج بن يوسف فى يوم جمعة فسمع استغاثة فتساءل :

ـ ما هذا ؟

فقيل :

ـ أهل السجون يقولون : قتلنا الحر .

قال طاغية ثقيف :

ـ قولوا لهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [سورة المؤمنون الآية: ١٠٨] .

قيل :

فما عاش الحجاج بعد ذلك إلا أقل من جمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار.

*** الحجاج وسعيد بن جبير :**

ظل طاغية ثقيف يطارد سعيد بن جبير سنوات طويلة وأخيرا ظفر به فلما وقف

أمامه قال له :

ـ يا سعيد : ألم أشركك فى إمامتى ؟ ألم أفعل ؟ ألم أستعملك ؟

حتى ظن من كان عند الحجاج أنه سيخلى سبيل سعيد بن جبير .

فقال سعيد بن جبير :

ـ بلى :

فتساءل طاغية ثقيف :

ـ فما أخرجك علىّ ؟

قال سعيد بن جبير :

ـ إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة .

فطابت نفس أبى محمد الثقفى ، ثم عاوده فى شىء ، فقال سعيد بن جبير:

ـ إنما كانت بيعة فى عنقى .

فغضب شيطان ثقيف وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبه وقال له:

ـ ويحك ، ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟

قال سعيد بن جبير :

ـ بلى .

قال الحجاج بن يوسف :

ـ فنكثت بيعتين لأمير المؤمنين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك ـ يعنى ابن الأشعث ـ ؟ والله لأقتلنك .

ثم أشار الحجاج بيده :

ـ خذوه إلى السجن .

وأراد الحجاج أن يغرى سعيد بن جبير بمباهج الدنيا ولهوها ، فأمر باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فوضع بين يدى سعيد بن جبير فأشاح بوجهه عنها وقال للحجاج:

ـ إن كنت جمعت هذا لتتقى به فزع يوم القيامة يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت فلا خير فى شىء جمع للدنيا ، إلا ما طاب وزكا .

فدعا شيطان ثقيف بِالْعُودِ والنَّاىِ .

فلما ضرب بالعود، ونفخ في الناى ، بكى سعيد بن جبير ، فتبسم طاغية ثقيف وظن أن ابن جبير قد رَقَّ وأدرك أن الدنيا متاع ، فتساءل :

ـ ما يبكيك ؟ أهو اللعب ؟

قال سعيد بن جبير :

ـ هو الحزن ، أما النفخ : فذكرنى يوما عظيما ، يوم ينفخ فى الصور ، وأما العود: فشجرة قطعت فى غير حق ، وأما الأوتار : فمن شاء تبعث معها يوم القيامة.

قال طاغية ثقيف :

ـ ويلك يا سعيد

قال سعيد بن جبير :

ـ لا وَيْلَ لِمَنْ زحزح عن النار وأدخل الجنة .

قال الحجاج بن يوسف وهو يهز رأسه متوعدا :

ـ اختر يا سعيد أى قتلة أقتلك .

بكى رجل فسأله سعيد بن جبير :

ـ ما يبكيك ؟

قال الرجل :

ـ ما أصابك يا أبا عبد الله .

قال سعيد بن جبير :

ـ فلا تبك ، كان فى علم الله أن يكون هذا .

ثم قرأ ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة الحديد الآية : ٢٢] .

انتفخ شيطان ثقيف فى جلسته وسأل أبا عبد الله فى استخفاف :

ـ ما اسمك ؟

فقال سعيد بن جبير فى صلابة وعزة :

ـ اسمى سعيد . . سعيد بن جبير .

ولكن الحجاج بن يوسف بالغ فى استخفافه وقال:

ـ بل أنت الشقى ابن كسير.

فقال سعيد بن جبير :

ـ كانت أمى أعرف ـ أعلم ـ باسمى منك .

فغضب طاغية ثقيف وصاح في تبرم :

ـ لقد شقيت وشقيت أمك .

وظن الحجاج أنه بذلك قطع الرد على أبى عبد الله ، ولكن سعيد بن جبير قال فى هدوء :

ـ الغيب إنما يعلمه غيرك .

استشرى غيظ الحجاج ولجأ إلى الوعيد والتهديد فقال من بين أسنانه :

ـ لأبدلنك نارا تتلظى.

قال أبو عبد الله فى غير مبالاة :

ـ لو علمت أن لك ذلك ما اتخذت إلها غيرك .

ولما طال الحوار ولم يصل شيطان ثقيف إلى إفحام غريمه كما كان يريد لجأ إلى فخه الذى ينصبه لكل فريسة . . فكان الكلام عن بعض الصحابة ثم سأله :

- ما تقول فى محمد ؟

تساءل أبو عبد الله :

- تعنى النبى ﷺ ؟

قال شيطان ثقيف :

- نعم .

قال سعيد بن جبير :

- سيد ولد آدم ، نبى الرحمة ، وإمام الهدى ، بعثه الله رحمة للعالمين ، خير من بقى، وخير من مضى .

فقال الحجاج بن يوسف :

- فما تقول فى أبي بكر ؟

قال أبو عبد الله

- الصديق خليفة رسول الله ﷺ ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، أعز الله به الدين وجمع به الفرقة ، مضى حميدا ، وعاش سعيدا، ومضى على منهاج نبيه ﷺ ، لم يغير ولم يبدل.

قال طاغية ثقيف :

- فما تقول فى عمر ؟

قال سعيد بن جبير :

- عمر الفاروق خيرة - الخيرة من القوم : الأفضل - الله من خلقه ، وخيرة رسوله، أحب الله أن يعز الدين بأحد العمرين فكان أحقهما بالخيرة والفضيلة ، مضى حميدا على منهاج صاحبيه لم يغير ولم يبدل.

تبسم شيطان ثقيف بسمة خبيثة ثم قال :

- فما تقول فى عثمان ؟

قال أبو عبد الله :

ـ المقتول ظلما ، مجهز جيش العسرة ـ يوم غزوة تبوك ـ والمشترى بيتا فى الجنة ، الحافر بئر رومة ـ أرض بالمدينة وهى بئر اشتراها ذو النورين من يهودى وتصدق بها للمسلمين ـ صهر رسول الله زوجه رسول الله ﷺ ابنته رقية وأم كلثوم بوحى من السماء .

قال شيطان ثقيف :

ـ ما تقول فى على ؟

قال سعيد بن جبير :

ـ ابن عم رسول الله ﷺ وزوج فاطمة ، وأبو الحسن والحسين .

فقال جبير ثقيف :

ـ ما تقول فى ؟

قال سعيد بن جبير :

ـ أنت أعلم بنفسك .

صاح شيطان ثقيف :

ـ بث فى علمك .

قال أبو عبد الله :

ـ إذا أسوءك ولا أسرك .

فزأر الحجاج :

ـ بث .

قال سعيد بن جبير :

ـ أعفنى .

قال طاغية ثقيف :

ـ لا عفا الله عنك إن أعفيتك .

قال أبو عبد الله :

ـ ظهر منك جور فى حد الله ، إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله ، ترى من نفسك أمورا تريد بها الهيبة وهى التى تقحمك الهلاك ، وسترد غدا ـ النار ـ فتعلم .

قال طاغية ثقيف فى صوت ينز غيظا وحنقا :

ـ ما تقول فى معاوية ؟

قال أبو عبد الله :

ـ كاتب رسول الله ﷺ ـ كان من كتاب الوحى ـ

قال الحجاج بن يوسف :

ـ ما قولك في الخلفاء منذ كان رسول الله ﷺ إلى الآن ؟

قال سعيد بن جبير :

ـ لست عليهم بوكيل ، سيجزون بأعمالهم ، فمسرور ومثبور ـ هالك أو مطرود من رحمة الله ـ

فقال طاغية ثقيف :

ـ فأيهم أحب إليك ؟

قال أبو عبد الله :

ـ أرضاهم لخالقى .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ فأيهم أرضى للخالق ؟

قال ابن جبير :

ـ علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم .

فعاد طاغية ثقيف يتساءل :

ـ فما تقول فى عبد الملك بن مروان ؟

قال أبو عبد الله :

ـ إن يكن محسنا فعند الله ثواب إحسانه ، وإن كان مسيئا فلن يعجز الله .

تنهد الحجاج وكأن صبره قد نفد، ثم قال :

ـ اذهبوا به فاضربوا عنقه .

قال سعيد بن جبير :

ـ إنى أشهدك أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ،استحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة .

*** الشهيد الضاحك :**

اقترب طاغية ثقيف من سعيد بن جبير وقال له :

ـ اختر يا سعيد أى قتلة أقتلك .

قال أبو عبد الله فى صوت ينبض بالإيمان العميق :

ـ اختر لنفسك يا حجاج فوالله لا تقتلنى إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة .

قال شيطان ثقيف :

ـ أفتريد أن أعفو عنك ؟

قال سعيد بن جبير :

ـ إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر .

قال الحجاج فى غضب :

ـ اذهبوا به فاقتلوه .

فلما خرج أبو عبد الله ضحك ، فأُخبر الحجاج بذلك فقال:

فلما جاءوا به سأله طاغية ثقيف :

- ما أضحكك ؟

قال ابن جبير :

- عجبت من جرأتك علي الله وحلم الله عليك .

هتف شيطان ثقيف :

- يا حارس : انطلق به فاضرب عنقه.

فأخذ مسلم الأعور بيد سعيد بن جبير فقال له :

- دعنى أصلي ركعتين .

فجاءهما صوت الحجاج :

- ما يقول؟

قال مسلم الأعور :

- قال : دعنى أصلي ركعتين.

وتوجه سعيد بن جبير نحو القبلة ، فصاح طاغية ثقيف :

- اقلبوا ظهره إلى القبلة .

فقال أبو عبد الله :

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة الآية : ١١٥] .

فصاح شيطان ثقيف :

- اقلبوا ظهره إلى القبلة .

فقال سعيد بن جبير :

- ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة البقرة الآية

: ١٤٢] .

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ كبوه على وجهه .

فقال ابن جبير:

ـ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [سورة طه الآية : ٥٥].

هتف طاغية ثقيف :

ـ اذبحوه من قفاه.

فقال سعيد بن جبير بعد أن نطق بشهادة الحق:

ـ اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى .

وقيل : قال الحجاج :

ـ يا حرسي اضربه ضربة على حبل عاتقه تخالط رئته .

فلم تمض أيام حتى كان الحجاج بن يوسف إذا نام يرى سعيد بن جبير فى منامه يأخذ بمجامع ثوبه ويقول:

ـ مالى وسعيد بن جبير .

وكان ذبح الشهيد الضاحك فى شعبان سنة خمس وتسعين من الهجرة بمدينة واسط.

*** يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج.**

لما قيل للحسن البصرى :

ـ إن الحجاج بن يوسف قتل سعيد بن جبير ذبحا .

قال الحسن البصرى:

اللهم ائت على فاسق ثقيف .

اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج ، والله لو أن ما بين المشرق والمغرب اشتركوا فى قتل سعيد لكبهم الله عز وجل فى النار .

وسجد الحسن البصرى شكرًا لله عز وجل وكان مختفيًا فظهر وقال :

ـ اللهم أمته فاذهب عنا سنته وأعماله الخبيثة .

*** مرض الحجاج بن يوسف :**

لم تمض ثلاثة أيام أو ثلاث ليال حتى التاث ـ أصابته لوثة ـ عقل طاغية ثقيف ، وشرد رأيه منذ أن رأى رأس الشهيد يتطاير عن جسده ، ولم يذق النوم إلا غرارا ، وكان يستيقظ فزعا وهو يصيح :

ـ يا قوم : مالي ولسعيد بن جبير ؟ كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي.

ولما مرض الحجاج أرجف الناس بموته.

قال بعضهم :

ـ رأيته وهو يأتى الجمعة وقد كاد يهلك من العلة.

ووقف الحجاج يخطب فقال:

إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا:

ـ مات الحجاج ، ومات الحجاج فمه فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟

والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا وما فيها، وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه ـ إبليس ، قال الله له : **﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾** [سورة الأعراف الآية: ١٥] فأنظره إلى يوم الدين ، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن أتم له أمره فقال **﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾** [سورة ص الآية: ٢٥] ، فما عسى أن يكون أيها الرجل وكلكم ذلك

أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل، وكأنى والله بكل حى منكم ميتا ، وبكل رطب يابسا ، ثم نقل فى أثياب أكفانه ثلاثة أذرع طولاً فى ذراع عرضا ، فأكلت الأرض لحمه، ومصت صديده ، وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله، إن الذين يعقلون، يعقلون ما أقول .

ثم نزل .

لما شعر الحجاج بن يوسف برعدة الموت تسرى فى جسده ، وأيقن بالهلاك قال:

ـ اسندونى .

وأذن للناس فدخلوا عليه ، فأخذ شيطان ثقيف يذكر الموت وكربه ، واللحد ووحشته ، والدنيا وزوالها والآخرة وأهوالها ، وكثرة ذنوبه ، وفداحة عيوبه .

وكان ممن دخلوا عليه أبو المنذر ـ يعلى بن مخلد ـ فتساءل :

ـ كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته ؟

قال سفاح ثقيف :

ـ يا يعلى : غما شديدًا ، وجهدا جهيدًا ، وألما عظيما ، ونزعا أليما ، وسفرا طويلا وزادا قليلا ، فويلى ويلى إن لم يرحمنى الجبار .

قال يعلى بن مخلد :

ـ يا حجاج إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء ، أولى الرحمة والرأفة والتعطف على عباده وخلقه ، أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين ، قتلت صالحى الناس فأفنيتهم ، وسلبت حقوق الناس فظلمتهم ، وأطعت المخلوق ـ خلفاء بنى أمية ـ فى معصية الخالق، وهرقت الدماء ، وهتكت الأستار ، وسست سياسة متكبر جبار ، والويل لك من الواحد القهار .

ولما حضرت الوفاة الحجاج قال:

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا   بأننى رجل من ساكنى النـــــــار

أيحلفون على عميـــاء ؟ ويحهـم   ما علمهم بعظيم العفو غفـــــــار

ولما احتضر الحجاج قال :

والله لئن كنت على ضلالة لبئس حين المفزع ، ولئن كنت على هدى لبئس حين المجزع .

وقال ليزيد بن أبى مسلم :

إذا مت فلا تكتم أمرى ومر من ينادى بموتى ، فإذا فرغت من دفنى فأجر الماء على قبرى، وليكن الحفر عميقا.

*** لما مات الحجاج :**

لما مات طاغية ثقيف لم يعلم بموته حتى أشرفت جارية فبكت ، وقالت.

ـ ألا إن مطعم الطعام ، وميتم الأيتام ، ومرمل النساء ، ومفلق الهام ، وسيد أهل الشام قد مات .

ثم أنشأت تقول :

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا واليوم يأمننا من كان يخشانا

يقول طاوس :

أخبرت بموت الحجاج مرارا ، فلما تحققت من وفاته قلت :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام الآية : ٤٥] .

*** دعوة المظلوم :**

هل استجاب السميع البصير لدعوة خادم رسول الله ﷺ بعد أن ادخرها عاما؟ .

أم استجاب لدعوة المسجونين الذين اشتكوا حَرَّ السجون فقال لهم سفاح ثقيف : ﴿ **اخسئوا فيها** ﴾ ؟ أم كانت أبواب السماء مفتحة الأبواب لدعوة الشهيد الضاحك عندما دعا العزيز الحكيم وقال :

ـ اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى .

فلم يقتل سفاح ثقيف أحدا بعد سعيد بن جبير إلا رجلا يسمى ماهان .

*** وصية الحجاج بن يوسف :**

ظل الحجاج بن يوسف عشرين سنة فى العراق ، ولما مات كان عمره ثلاثًا وخمسين سنة . وجدوا وصية كتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف ، أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك ، عليها يحيى وعليها يموت ، وعليها يبعث ، وأوصى بتسعمائة درع حديد ، ستمائة منها لمنافقى أهل العراق يغزون بها ، وثلاثمائة للترك .

*** رؤية الحجاج فى المنام :**

رأى الحسن البصرى الحجاج فى المنام فقال له :

أنت الحجاج ؟

قال شيطان ثقيف :

ـ أنا الحجاج

قال الحسن البصرى :

ـ ما فعل الله بك ؟

قال أبو محمد الثقفى :

ـ قُتِلْتُ بكل قتيل قتلة ، ثم عزلت مع الموحدين

فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه

أبو الأصمعى قتلت يرى الحجاج فى المنام

رأى أبو الأصمعى فى المنام شيطان ثقيف فقال له :

ـ ما فعل الله بك ؟

قال الحجاج :

ـ قتلنى بكل قتلة قتلت بها إنسانا

يقول أبو الأصمعى :

ثم رأيته بعد الحول فقلت :

ـ يا أبا محمد : ما صنع الله بك ؟

قال الحجاج :

ـ يا ماص بظر أمه أما سألت عن هذا عام أول ؟

ورأى أشعث الخراز الحجاج فى المنام فى حالة سيئة فقال :

ـ يا أبا محمد : ما صنع بك ربك ؟

قال الحجاج :

ـ ما قتلت أحدًا قتلة إلا قتلنى بها ، ثم أمر بى إلى النار .

قال أشعث الخراز :

ـ ثم مه ؟

قال الحجاج :

ـ ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله

ويقول القاضى أبو يوسف :

كنت عند الرشيد ، فدخل عليه رجل فقال :

ـ يا أمير المؤمنين : رأيت الحجاج البارحة فى النوم

قال هارون الرشيد :

ـ فى أى زى رأيته ؟

قال الرجل :

ـ فى زى قبيح

ثم سأل الرجل الحجاج :

ـ ما فعل الله بك ؟

فقال الحجاج :

ـ ما أنت وذاك يا ماص بظر أمه ؟

فقال أمير المؤمنين هارون الرشيد :

ـ صدقت والله ، أنت رأيت الحجاج حقًا ، ما كان أبو محمد ليدع صرامته حيًا وميتا .

*** أولاد الحجاج :**

ولد الحجاج من أم الجلاس : الوليد ، ومن أم سلمة بنت عبد الرحمن : يوسف، ومن أم أبان بنت النعمان : أبان ، وعبد الملك .

*** من أقوال الحجاج بن يوسف .**

كان الحجاج يقول فى خطبته :

إن الله خلق آدم وذريته من الأرض ، فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا ثمارها وشربوا أنهارهم وهتكوها بالمساحى ـ جمع مسحاة ، ويحرق به ـ والمرور ، ثم أدال الله منهم فردهم إليها ، فأكلت لحومهم ، كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم فى جوفها وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحى والمرور .

* وقال الحجاج فى خطبته فى المواعظ .

الرجل وكلكم الرجل ، رجل خطم نفسه وزمها ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله وكفها بزمامها عن معاصى الله ، رحم الله امرأ رد نفسه ، امرأ اتهم نفسه ، امرأ اتخذ نفسه عدوة ، امرأ حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره ، امرأ نظر إلى ميزانه ، امرأ نظر إلى حسابه ، امرأ وزن عمله ، امرأ فكر فيما يقرأ غدا فى صحيفته ويراه فى ميزانه ، وكان عند قلبه زاجرا ، وعند همه آمرا ، امرأ أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جمله ، فإن قاده إلى طاعة الله تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كف ، امرأ عقل عن الله أمره ، امرأ فاق واستفاق ، وأبغض المعاصى والنفاق ، وكان إلى ما عند الله بالأشواق .

إن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل.

الخطام : الزمام .

الزجر : المنع .

* ويقول الحجاج عن هذه الأعواد :

إن امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ما خلق له ، لحرى أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة .

الأعواد : مفرد عود وهو آلة من آلات الطرب .

* وقال الحجاج بن يوسف .

إن الرجال ذوى الظنون يظنون فيدخلون ، ويظنون فيخرجون ، والمرأة إذا رأت عقلت ، وإذا سمعت انتفعت .

* وقال فى خطبته :

إن امرأ مضت له ساعة فى غير ما خُلق له لخليق أن تَعْظُم حسرته .

* وقال الحجاج :

لا يملن أحدكم المعروف ، فإن صاحبه بعرض خير كثير ، شكر فى الدنيا وثواب فى الآخرة ، وخير المعروف ما بغشت ـ البغشة : المطرة الضعيفة ، والصبى يبغش وذلك إذا أجهش إليك ـ به عثرات الكرام .

* قال أبو حيان التيمى : سمعت الحجاج يقول على المنبر :

يدعى حىٌّ على الصلاة فلا يجيبون ، أما والله لو دعى حىٌّ على أربعة دراهم لغص ـ امتلأ ـ المسجد بأهله .

* قال أبو نعيم الفضل بن دكين :

ـ ذكروا أنه عُدَّ فى المسجد يوم الجمعة أيام الحجاج تسعون رجلا .

* خطب الحجاج فقال :

إن خيركم من صبر على مكروه الطاعة ، فذلك الذى يستوجب الثواب ، ويكافأ بالإحسان ، فأما من جرى مع الطاعة ما جرت الطاعة مع هواه فليس بمستوجب خيرًا ولا معدود مطيعًا .

* وقال الحجاج لما ماتت أسماء بن خارجة بن حفص الفزارى :

هذا الذى عاش فيما شاء ، ثم فنى فنى .

* قال الحجاج على المنبر :

أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله فى حاجته ؟ .

فقال البزيع بن خالد الضبى :

ـ لله على ألا أصلى خلفك أبدًا ، وإن رأيت قومًا يجاهدونك لأجاهدنك .

فخرج مع ابن الأشعث فقتل يوم (دير الجماجم) .

* وقال الحجاج :

لأنا للعاقل المُدْبر أرجى منى للأحمق المُقْبل .

* وقال فى خطبته :

أيها الناس :

إنكم لم تخلقوا للفناء ، إنما خلقتم للبقاء ، غير أنكم تنتقلون من دار إلى دار ، فرحم الله عبدًا أخذ بعنان عمله ، فإن كان لله مضى قدمًا ، وإن كان لغيره ، أمسك محجما.

* وقال الحجاج حين أراد الحج :

أيها الناس

إنى أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابنى هذا وأوصيته فيكم بخلاف وصية رسول الله بالأنصار ، فإن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، ألا وإنى أوصيته ألا يقبل من محسنكم ولا يعفو عن مسيئكم ، وإنكم ستقولون بعدى مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى ، تقولون : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإنى قائل لا أحسن الله عليكم الخلافة .

ثم نزل

* وقال الحجاج فى خطبته :

والله لتموتن ثم لتبعثن ثم لتسألن حتى يصير أهل الجنة إلى الجنة ، كأنما كانوا فيها مذ خلقوا .

* وقال الحجاج :

إنما هذه العقارب من وذح ـ الوذح : ما تعلق بأصواف الغنم من بعر وبول ـ الشيطان .

* وخطب الحجاج فقال :

يا أهل العراق :

إنه والله ما بينى وبينكم من هوادة ولا بلهنية ولا رفاهية ولا دبغ على التحلية ، ولا أقول لمن عثر لعًا ـ اللعو ـ السيء الخلق ـ ولكن لليدين والفم ، وما مثلى ومثلكم إلا كمثل رجل كانت فى بيته حية تخرج له كل يوم دينارا تضعه على باب جحرها فقيل له :

ـ لو قتلتها لاستخرجت الدنانير التى فى جوفها .

فرصدها بفأس فلما خرجت أهوى إليها ليضربها فولت فقطع ذنبها ، فلما كان الليل لدغت ابنًا له فمات فندم وسألها الصلح ، فقالت :

ـ لا صلح بينى وبينك ، إذا ذكرت قطع ذنبى وذكرت قتل ابنك لم تطب نفسك لى، ولا نفسى لك .

* وخطب الحجاج فقال :

إن الله أمرنا بطلب الآخرة ، وكفانا مؤونة الدنيا ، فليتنا كفينا مؤونة الآخرة .

فلما سمع الحسن البصرى ذلك قال :

ـ منية مؤمن خرجت من قلب منافق .

* وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

بلغنى أن أمير المؤمنين عطس فشمته من حضر ـ قالوا له : يرحمكم الله ـ فرد عليهم أن يغفر الله لكم ، ويصلح بالكم ، فياليتنى كنت معهم فأفوز فوزًا عظيمًا .

* وخطب الحجاج فذم الدنيا وصغرها فقال :

والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا لى بعمامتى هذه ، ولما بقى منها أشبه بما مضى من الماء بالماء .

* وخطب شيطان ثقيف فى يوم جمعة فأطال فقال رجل :

ـ الصلاة أيها الأمير فإن النهار لا ينتظرك ، والله لا يعذرك .

فحبسه .

وكلم فيه وقيل :

ـ إنه مجنون

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ إن زعم أنه مجنون خليت سبيله .

فقيل للرجل :

ـ قل إنى مجنون .

فقال الرجل :

ـ ما كنت لأنسب إلى ربى ما لم يفعله بى

فعرض الحجاج الناس يومًا فغلط وأطلق سراحه

* وخطب الحجاج يومًا فقال :

اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعه ، وأرنى الغى غيا فاجتنبه ، ولا تكلنى إلى نفسى فأضل ﴿ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ سورة النساء الآية : ٦٠ .

* مات محمد بن الحجاج فى حياة أبيه فقال الحجاج :

ـ إذا فرغتم من غسله فأعلمونى .

فأعلموه .

فانطلق حتى أخذ بعضادتى الباب فنظر إلى ابنه وهو على السرير فقال:

الآن لما كنت أكمل من مشى   وافتر نابك عن شباة القارح

فقيل له :

ـ استرجع ـ قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ـ أصلح الله الأمير ـ.

فقال الحجاج بن يوسف :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٥٦ ، ١٥٧] .

* ومات محمد بن الحجاج . ومحمد بن يوسف الثقفى باليمن فى سنة واحدة فقال الحجاج:

مصيبتان عظيمتان فى عام ؟ أما والله لو كان الموت يقبل الفداء لقد كان عندنا مال، ولو كان يدفع بالقوة لقد كانت عندنا قوة وسلطان ، ولكن غلب سلطان الله سلطاننا ، وما يسرنى أن أحدهما عن يمينى والآخر عن شمالى لما أرجو من ثواب الله ، وكأنا بكل جديد قد بلى وبكل حى قد مات .

* وخطب الحجاج فقال :

احفظوا ألسنتكم فإن أيمن امرئ وأشأمه بين فكيه .

* وقال الحجاج بن يوسف :

اللهم إن ذنوبى قد كثرت فجلت عن الوصف.

اللهم وإنها صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى .

* أخذ رجل بابن عم له عاص .

فقال للحجاج :

ـ أؤخذ بذنب غيرى أصلح الله الأمير وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [سورة الأنعام الآية : ١٦٤] .

فقال الحجاج بن يوسف :

أو ما سمعت قول القائل :

. . . . إن الفتى بابن عم السوء مأخوذ

فقال الحسن البصرى لما بلغه ذلك :

ـ ما له قبحه الله تتلى عليه آية من كتاب الله فيعارضها بقول شاعر كذاب .

* وقال الحجاج :

الكآبة فى أربع : فى الفقر بعد الغنى ، والذل بعد العز ، واليأس بعد الطمع ، وعواقب الهوى المتبع .

*** قالوا عن الحجاج :**

قال الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز :

لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم .

وقال عاصم بن أبى النجود :

ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج .

يقول عمر بن العلاء :

سمعت أعرابيًا يقول : مات الحجاج .

ربما تجزع النفوس من الأمـــ ـــر له فرجة كحل العقال

فما أدرى بأى الأمرين كنت أفرح ، أبموت الحجاج أم بقوله فرجة ؟ ربما كنا نرويها فرجة .

لما هلك الحجاج صرخ صارخ على الخضراء بواسط :

ألا إن مفلق الهام ، ومطعم الطعام ، وحبيب أهل الشام قد هلك .

قال إسحاق بن أبى فروة :

رأيت أنس بن مالك ـ خادم رسول الله ﷺ ـ وقد ختم الحجاج فى رقبته .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز رحل إليه أهل الزاب والنيل إلى البصرة فشكوا إليه مما صنع الحجاج فقال الخليفة العادل :

بئس الرجل كان الحجاج لقد كان ظالمًا متعديًا .

وجاء عبد الله بن غالب ، وأبو قريش الجهضمى وعقبة بن عبد الغافر الأزدى إلى الحسن البصرى فقالوا :

ـ إن الحجاج قد أمات السنة ، وانتهك المحارم ، وقتل على الظنة وأخاف المسلمين.

فقال الحسن :

ـ إن الحجاج عقوبة من الله ، فلا تلقوها بالسيف ، ولكن بالتوبة والتضرع .

وقالوا للحسن البصرى :

كان الحجاج يأخذ الناس بالجمعة ثم يقيم على رءوس الفقهاء والقراء قوما يمنعوهم من الصلاة حتى يصلى ، فكانوا يومئون إيماء .

فقال الحسن البصرى :

ـ هى ـ الصلاة ـ والله لهم تامة .

وقال الحسن البصرى :

الحجاج يتلو القرآن تلاوة أزرقى ، ويحكم حكم جبار .

لما مات الحجاج قال الفرزدق يرثيه :

ماذرفت عينان بعد نبيها   على مثلـه إلا نفـوس الخـلائف
أقـول لهم لما أتانى نعيه   أريحوا عليكم مهملات التنائف

وكان الحسن البصرى يذكر الحجاج فيقول :

أخفش ـ الخفش : بفتحتين صغر وضعف فى البصر ـ أعمش ـ العمش فى العين : ضعف الرؤية مع سيلان دمعها فى أكثر أوقاتها ـ مقصص الشعر ، جاءنا يميت الصلاة

حتى تصفر الشمس ويقول :

ـ إنا والله ما نصلى للشمس ، وما نصلى إلا لله ، أفلا تقولون : يا عدو الله إن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار ؟ ، وكيف تقولون ذلك وعلى كل رأس رجل علج قائم بالسيف ؟

قال رجل من أهل الشام :

اللهم إنى أعلم أنك لا تعذب الحجاج ، فلا تحرمنى شفاعته .

قال الحجاج لرجل من الأعاجم :

ـ أمن أبناء الملوك أنت ؟

قال الأعجمى :

ـ لا ولكنى من أبناء أهل الرأى .

قال الحجاج :

ـ أخبرنى عنى .

قال الأعجمى :

ـ غضبك نصفين بين عدوك وصديقك ، صديقك يخافك كما يخافك عدوك .

فتبسم الحجاج ، وأمره أن ينطلق .

قال بزيغ ـ بزيع ـ بن خالد الضبى :

قال الحجاج :

ـ رسول ـ نبى الله ﷺ ـ أحدكم فى حاجته أكرم عليه أم خليفته ـ أمير المؤمنين ـ فى أهله ؟

فقلت فى نفسى :

ـ لله على أن لا أصلى خلفك صلاة أبدًا ، وإن وجدت قومًا يجاهدونك لأجاهدنك معهم .

فخرج بزيغ خالد الضبى مع ابن الأشعث وقتل يوم (دير الجماجم) .

وقيل لسعيد بن جبير :

أخرجت على الحجاج ؟

قال أبو عبد الله :

ـ إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر .

وكتب الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة :

بلغنى أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسنته ، فإنه كان يصلى الصلاة لغير وقتها، وأخذ الزكاة من غير حقها ، وكان لما سوى ذلك أضيع .

وبعث الخليفة العادل عمر بن العزيز بآل بيت أبى عقيل ـ أهل بيت الحجاج ـ إلى صاحب اليمن ، وكتب إليه :

أما بعد

فإنى بعثت بآل أبى عقيل ، وهم شَرُّ بيت فى العمل ، ففرقهم فى العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا .

وعليك السلام .

* وقال القاسم بن مخيمرة :

ـ كان الحجاج ينقض عرى الإسلام .

* وقال عاصم :

لم يبق لله حرمة إلا ارتكبها الحجاج بن يوسف .

اختلفوا فى الحجاج بن يوسف الثقفى فسألوا مجاهدًا فقال :

تسألون عن الشيخ الكافر ؟

وقال الشعبى :

الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت ـ الشيطان ـ كافر بالله العظيم .

وقال طاوس :

عجبًا لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمنا .

قال أبو وائل لابن عوف :

ـ أتشهد أنه ـ الحجاج ـ من أهل النار ؟ .

فقال ابن عوف :

ـ أتامرونى أن أشهد على الله العظيم ؟

وسأل منصور إبراهيم النخعى عن الحجاج أو بعض الجبابرة فقال :

ـ أليس الله يقول ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة هود الآية : ١٨] .

وقال إبراهيم النخعى :

ـ كفى بالرجل عمى أن يعمى عن أمر الحجاج .

*** صدقت نبوءة رسول الله ﷺ .**

رأى خاتم الأنبياء ﷺ بعين النبوة أن ثقيفا يخرج منها كذاب فخرج ابن أبى عبيد ـ المختار ـ .

ورأى الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ أن سيخرج منها مبير ـ سفاح ـ فكان الحجاج ابن يوسف .

يقول هشام بن حسان :

أحصوا ما قتل الحجاج صبرا ـ صبره : حبسه ـ فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا .

وأطلق أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك فى غداة واحدة أَحَدَ وثمانون ألف أسير كانوا فى سجن الحجاج ، منهم ثلاثون ألف امرأة .

وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا ، لم يجب على أحد منهم قطع ـ قطع يد أو رجل ـ ولا صلب .

فأى مبير ـ مهلك ومسرف فى القتل ـ كان الحجاج بن يوسف الثقفى ؟ الذى ولد فى ليلة عاصفة لم تر مثلها ثقيف ، وولد مشوها لا دبر له ، ورضع دم جدى ، ثم دم سالخ ـ السالخ : الأسود من الحيات ـ ورأت أمه أنها ولدت كلبا عقورًا يلغ فى الدماء وقال له أبوه :

ـ خلقك الله شقيًا .

لقد كان سفاح ثقيف نقمة على أهل العراق فظل كابوسًا مخيفًا ملأ صدورهم رعبًا عشرين عامًا .

المراجع

القرآن العظيم	
تفسير الطبرى	
الجامع لأحكام القرآن	القرطبى
صحيح البخارى	
صحيح مسلم	
المستدرك على الصحيحين	الحاكم
البرهان على إعجاز القرآن	عبد العزيز الشناوى
الكامل فى التاريخ	ابن الأثير
جمل من أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى
البداية والنهاية	ابن كثير
مروج الذهب	المسعودى
المعجم الكبير	الطبرانى
الجامع الصحيح	الترمذى
فقهاء حول الرسول ﷺ	عبد العزيز الشناوى
المسند	الإمام أحمد
سنن النسائى	السيوطى
مواقف ومواعظ من حياة التابعين جـ٣	عبد العزيز الشناوى

الفهرس